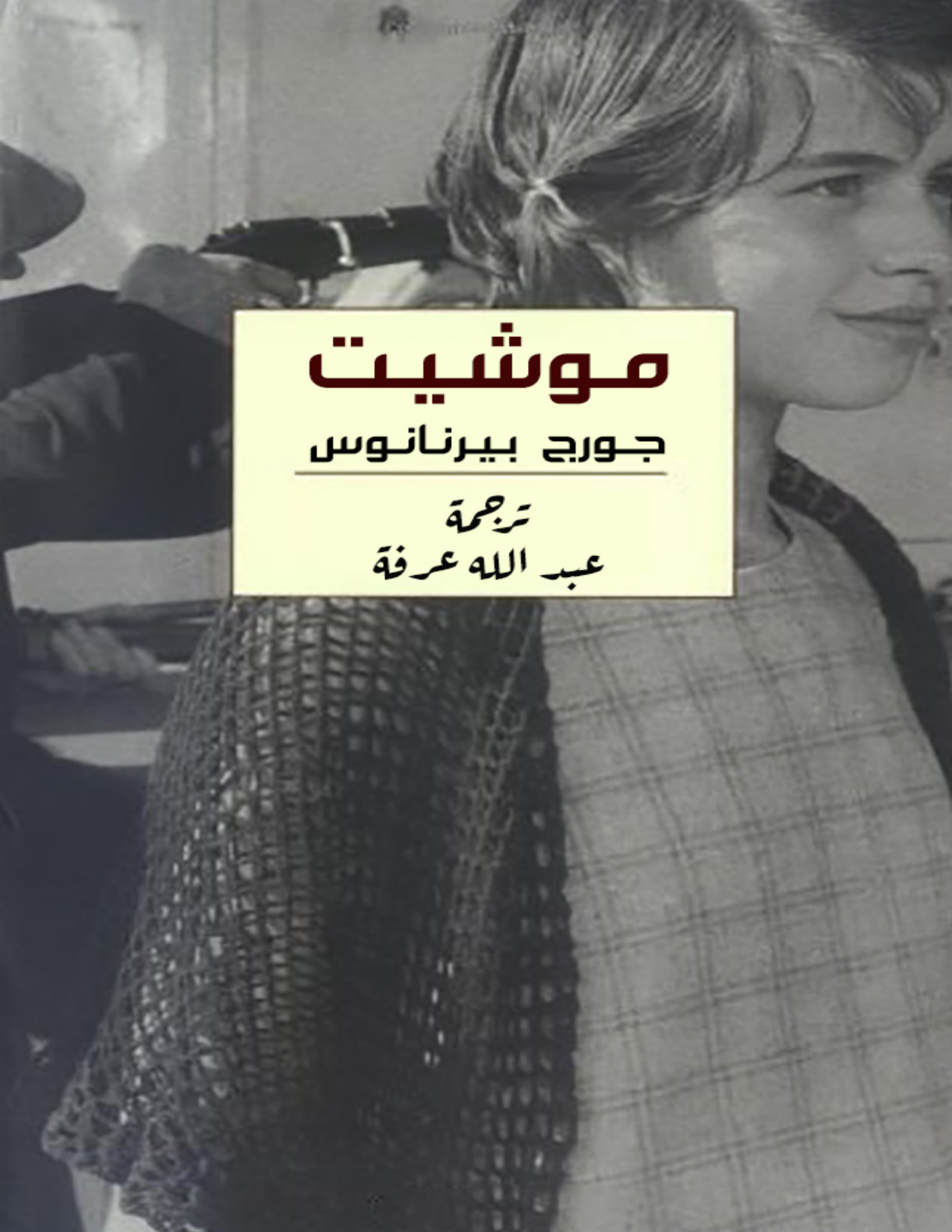

موشيت

جورج بيرنانوس

ترجمة
عبد الله عرفة

موشيت

جورج بيرنانوس

ترجمة

عبد الله عرفة

موشيت

وُلد جورج بيرنانوس (1888-1948) في باريس، ودرس القانون والأدب في جامعة باريس. ألف عددًا من الروايات التي صدرت كأفلام أهمها مذكرات قسيس القرية وموشيت.

وُلد عبد الله عرفة في مدينة طنطا بشمال مصر، وحاز على بكالريوس طب الفم وجراحة والأسنان. ترجم عددًا من الكتب والروايات أهمها العين بالعين لسيمون دو بوفوار، ولغز الحياة وفنونها لجون رسكن.

إهداء المترجم

إلى كل روح غادرها العالم قبل أن تغادره، ولم تذق من الحب شيئًا، أهدي هذا العمل.

موشیت

I

الريح الغربية الداكنة، ريح البحر، كانت منذ البدء تبعثر الأصوات في سديم العتمة. داعبتها لحظة قصيرة، ثم رفعتها جميعًا في قبضة عاتية، وبدّدت شتاتها بزئير غضوب. أما الصوت الذي تناهى إلى مسامع موشيت، فقد ظلّ معلقًا في الفضاء زمناً مديدًا، كورقة ذابلة تتهادى في أبدية السقوط.

خلعت موشيت قباقيبها لتتمكن من الركض بسرعة أكبر. وحين أعادتها إلى قدميها، أدخلتهما في الموضع الخطأ. لا بأس! كانت قباقيب يوجين، فسيحة إلى حدٍّ جعلها قادرة على دسّ أصابع يدها الصغيرة الخمسة تحتها وهي ترتديها. لكن كان لها ميزة واحدة: إذا دفعت بأصابع قدميها إلى أقصى المقدمة، متعاملة معها كزوج من القرقعات الضخمة، فإنها، حين تعبر باحة المدرسة المعبدة بالإسفلت، تستطيع إحداث ضجيج يصيب المعلّمة بالجنون.

انزلقت موشيت حتى بلغت حافة الضفة، ثم جلست مستندة بظهرها إلى السياج المتشح بالندى، متأهبة للمراقبة. من موقعها، بدا لها أن المدرسة لا تزال قريبة، لكن الباحة باتت خاوية الآن. فبعد فترة اللعب يوم السبت، يجتمع التلاميذ في القاعة الكبرى، تلك القاعة التي يزينها تمثال الجمهورية، وصورة قديمة للسيد أرمان فاليغريس لم تُستبدل قط، إضافة إلى راية جمعية الجمباز الملفوفة داخل غلافها المشمّع. هناك، كانت المعلمة تتلو نتائج الأسبوع، ثم يتعين عليهم أداء الأغنية المقررة للحفل السنوي، ذلك اليوم البعيد الذي لا يزال في رحم الزمن، في شهر مارس الكئيب. والآن، استطاعت موشيت التقاط الكلمات المألوفة، ذلك المقطع "مزيد من الأمل الذي كانت المعلّمة تلفظه دومًا بملامح مشوّهة بتكلف الألم، وهزّة عنيفة من رأسها تفقدها مشطها المتداعي.

من خلف النوافذ التي غشّاها المطر، بالكاد استطاعت موشيت تمييز الرؤوس المتجمعة اثنين اثنين أو ثلاثة ثلاثة حول دفاتر النوتات، لكن ظلّ المعلمة الفارع كان يرتسم بوضوح، قاتمًا فوق الجدران المرسومة. ذراعها الهزيل، بصعوده وهبوطه المنتظم، كان يتوقف بين الفينة والأخرى، متيبسًا في وقفته الآمرة، فتخفت الأصوات رويدًا رويدًا، كحيوانات مستأنسة تلقي بنفسها صاغرة عند قدمي مروّضها.

بحسب معلمتها، لم تكن لدى موشيت أي موهبة في الغناء. لكن الحقيقة أنها كانت تبغضه، كما تبغض كل موسيقى، بذلك الكره الوحشي الغامض الذي لم تستطع تفسيره. فما إن تلامس أصابع المعلمة الطويلة، المشوّهة بداء الروماتيزم، مفاتيح الهارمونيوم الموجع حتى تشعر موشيت بانقباض خانق في صدرها، يجلب الدموع إلى عينيها، دموعًا أقرب إلى الإحساس بالخزي. كل نغمة كانت تخترق كيانها كما تفعل الكلمات الجارحة التي يتمتم بها الصبيان عند مرورها، تلك الكلمات التي تتظاهر بعدم سماعها، لكنها تظل ملتصقة بها طوال اليوم، كأنها التصقت بطبقات جلدها.

وفي أحد الأيام، وقد علاها الشحوب من فرط الغضب، حاولت موشيت أن تنقل إلى المعلمة سرّ نفورها الذي لا يُقهر، لكن لم يسعها سوى التلعثم ببضع عبارات بائسة تكررت فيها كلمة "اشمئزاز مرارًا ." إن الموسيقى تثير اشمئزازي.

فقالت المعلمة بصوت مثقل بالملل والاحتقار: "أنتِ مجرد وحش صغير، وحش متكامل. حتى المتوحشون لهم موسيقاهم. موسيقى همجية، بالطبع، لكنها موسيقى مع ذلك. فالموسيقى تسبق المعرفة في كل مكان.

ورغم ذلك، تخلّت عن محاولة تعليمها السُلّم الموسيقي؛ كان الأمر مضيعة للوقت ومصدرًا للإحباط. لكن موشيت، التي كانت لسبب مجهول تصرّ على التحدث من حنجرتها وتضخيم لكنتها البيكاردية المريعة، امتلكت، في رأي المعلمة، صوتًا آسرًا، رقيقًا كخيط واهن، يوحي في كل لحظة أنه سينكسر لكنه لا يفعل أبدًا. إلا أنه، ومنذ أن بلغت عامها الرابع عشر وصارت الفتاة الكبرى في المدرسة، أخذت موشيت تغني من حنجرتها -إن غنّت أصلاً- إذ غالبًا ما كانت تكتفي بفتح فمها دون أن يصدر عنها صوت، على أمل أن تخدع الأذن الحادة لمعلمتها. وحين كانت الأخيرة تفقد صبرها تمامًا، كانت تهبط عن منصّتها، وتجرّ الفتاة المتمرّدة نحو الهارمونيوم، ثم تدفع رأسها بعنف نحو لوحة المفاتيح.

كانت موشيت تقاوم أحيانًا، وأحيانًا أخرى كانت تتوسل الصفح وتصرخ بأنها ستحاول. حينها، كانت المعلمة تجلس، وتستخرج من الآلة أنينًا كئيبًا، بينما كان صوت موشيت الصافي، الذي استُعيد بمعجزة، يترنّح فوقه مترجرجًا، كقارب ضئيل فوق قمة موجة هائلة من الزبَد.

في البداية، لم تكن موشيت تميّز صوتها. كانت غارقة في مراقبة زميلاتها، نظراتهن، وابتساماتهن الشاحبة، التي كانت تظن بسذاجة أنها مزيج من الازدراء. لكنها كانت غارقة في إحساس غامض،

كأنها تائهة في أعماق ظلمة سحرية لا يمكن اختراقها. كانت تحاول عبثًا كسر ذلك الوتر البلّوري، لكنها سرعان ما كانت تعود إلى صوتها الأجشّ ولهجتها البيكاردية المقيتة. وفي كل مرة، كان نظر المعلمة القاسي ونغمة الهارمونيوم الحادة يضعانها في موضعها. لم تكن معركتها عادلة، ولم يكن أحد ليدرك قسوتها. للحظات كانت تستنزف قواها في هذا الصراع العقيم، ثم فجأة، دون أن تعي أو تقصد، كانت تلك النغمة الشاذة، المنبعثة قسرًا من صدرها المرتجف، تحرّرها. لم يعد شيء مهمًا. كان الضحك ينفجر من كل صوب، ويتخذ وجهها ذلك التعبير الأبله الذي تتقن ارتداءه لإخفاء لحظات فرحها.

لابد أن المعلمة أدركت غيابها الآن، لكن ما أهمية ذلك؟ بعد لحظات قليلة، كانت موشيت على موعد مع لذتها الكبرى، لذتها الخاصة، تلك اللذة المتواضعة والفوضوية مثلها تمامًا. بعد قليل، سوف تنفتح أخيرًا تلك البوابة، السوداء الموصدة، وتلقي بالصف بأكمله إلى الطريق. سيندفعون خارجين بصيحة حادّة واحدة، غير مكترثين لنداءات المعلمة الأخيرة أو تصفيقها العاجز. وحينها، ستكتم أنفاسها، جاثية تحت السياج، غارقة في قلق لذيذ، تراقب هذا السرب الصاخب، تلمح وجوههم الخفية في العتمة، بينما تتصاعد أصواتهم، متخلية عن نبرتها المعتادة.

وكما كان الحال مع كل متع موشيت، كانت هذه اللذة تزداد عمقًا بدل أن تخبو في كل مرة. كما كانت تلتقط، من الظلال وأخاديد الطريق، ألف شيء ثمين ظلّ منسيًا لسنوات، كذلك اكتشفت هذه المتعة صدفة.

في بعض الأيام، تلك التي كانت تسميها المعلمة "أيامها السيئة"وحين يرنّ الجرس مؤذنًا بفترة اللعب، في الباحة التي لا تضيئها سوى شعلة غاز باهتة، لم تكن تستطيع مقاومة إغراء تسلق السياج والفرار إلى العتمة. كانت تهرع، وأزيز قباقيبها يملأ أذنيها، دون أن تجرؤ على الالتفات، حتى تصل، لاهثة، إلى حيث يلتقي طريق أوبان بممر سان فاست. لكن ذات يوم، بقرار مفاجئ من المعلمة، تأجل درس الموسيقى إلى اليوم التالي، فانطلقت المدرسة بأسرها تقريبًا خلف موشيت. بالكاد أتيح لها الوقت للصعود إلى الضفة وإلقاء نفسها على العشب، وجهها مسطحٌ على الأرض. كان من المدهش أن الفتيات، بعد انطلاقهن، توقفن هناك، يتبادلن الثرثرة لوقت طويل، بل إن اثنتين منهن غالبًا ما كانتا تتأخران أكثر بعد انصراف البقية، لتقفان مستندتين إلى السفح العشبي. كانت موشيت، مختبئة، تستطيع مدّ يدها ولمس خصلات شعرهن المتشابكة بشرائطها القذرة.

لكن أفضل اللحظات كانت الأخيرة، حين تبدأ المجموعات بالتلاشي، ماضية عبر الريف المترامي، المتشابك بمساراته، وغاباته، وحقوله، وبركه الراكدة، بينما يبقى زوجٌ واحد ليهمس خلسة. كان البلل يتغلغل ببطء إلى جوارب موشيت، وكانت تكتم أنفاسها كي لا تكشفها عطسة مفاجئة.

في تلك الليلة، انطلق الجميع مسرعين، متلاشيين في العتمة، ولم يبق سوى الهمس الخافت للمطر فوق الأوراق الجافة. اشتعلت موشيت بالغضب، فجمعت حفنة من الوحل وقذفتها خلف آخر المنطلقين. سقطت بصمت على الطريق، ولم يلتفت أحد. سرعان ما تلاشت أصواتهم القاسية، واندمجت في همهمة ناعمة، يقطعها بين الفينة والأخرى طرقُ مطرقة الحداد على السندان، رنين نقي وصافٍ، كنداء علجوم فضيّ الحنجرة في موسم آخر.

مرة أخرى، نسيت المعلمة أن تطفئ مصباح الغاز في الساحة. كان من الطراز القديم، بلهب على شكل فراشة يتوهج مركزه بالزرقة. كان اللهب يهمس ويزفر في مهب الريح، لكنه لا يلبث أن ينهض من جديد، ملقيًا بظلال الأعمدة الحمراء والسقف القبيح فوق الإسمنت الباهت. لم تستطع موشيت أن تبعد عينيها عنه. خُيّل إليها، كما في أحلام كثيرة سبقت، أن هذا المشهد المتواضع كان ينتظر شخصًا ما. تُرى، هل سيعود؟ هل سيعود هذه الليلة؟...

لكن لم يظهر سوى المعلمة، التي أطلت فجأة من باب المطبخ، ثم خرجت إلى الخارج. لم يبقَ إلا الحور الطويل، بالكاد مرئيًا في السماء، يهمس كنبع ماء خفيّ.

لم تكلف موشيت نفسها عناء النزول من السفح، بل تسللت تحت السياج، تاركة خيطًا من وشاحها معلقًا في سلك شائك، ثم مضت عبر الحقول، تتبع الانحدار الطفيف نحو غابة مانرفيل. لم تكن الغابة سوى بضع فدادين من تربة رملية بائسة، يعجّ ترابها بالأرانب الجائعة، التي لم تكن أكبر من الجرذان. كانت موشيت تسكن في قرية سان فنّان، عند الطرف الأبعد من الغابة، حيث لم يبقَ سوى بضع أكواخ، هي كل ما تبقى من ملكية شاسعة مزّقها، قبل عقد من الزمن، مضارب أراضٍ يهودي من الأردين. كان بيتها منعزلاً عند حافة بركة راكدة. جدرانه الطينية، المشققة بفعل الصقيع، كانت تنهار شيئًا فشيئًا، وهياكله، المصنوعة من أخشاب مسروقة من هنا وهناك، كانت تتآكل تحت وطأة الزمن. وحين يأتي أول زمهرير، لم يكن والدها يجد حلاً سوى أن يحشو الثقوب بأغصان يابسة.

عند وصولها إلى الغابة، كانت الريح قد اشتدّت، وراحت زخات المطر العنيفة تهمس بين الأغصان اليابسة. كان الظلام قد بلغ حدّه، حتى أن الأرض نفسها صارت غير مرئية. انهمر المطر كحبات برد، فرفعت موشيت طرف تنورتها فوق رأسها، وأسرعت تركض، لكن الأرض، التي نخرتها الأرانب، كانت تخونها عند كل خطوة، وإن حاولت أن تسلك الحواف، حيث تشابكت الجذور وجعلت التربة أكثر تماسُكًا، كانت الأغصان المبتلّة تجلدها بلسعاتها.

علِق وشاحها في غصن. مدت يدها لتستعيده، لكن قدمها اصطدمت بجذع شجرة فسقطت على الأرض بكامل جسدها. تبا لهذا الوشاح! لم يكن جديدًا، لكنه كان يدور بين أفراد العائلة حسب الحاجة. حتى والدها كان يلفّه حول رأسه حين ينتفخ وجهه من نوبات وجعه الرهيب. كيف لن يلاحظوا فقدانه، وهو المعلّق على نفس المسمار كل يوم؟ شعرت بالفعل بوطأة العقاب الذي ينتظرها.

تصاعد صوت المطر المنهمر، واختلط بصوت الأرض المتشبعة بالماء. ومن تحت حجر خفيّ، انساب خرير ماء نقي، كأنما ثمة نبع سرّي يهمس في الظلام.

تجولت موشيت في يأس داخل أعمق جزء من الغابة، وفي النهاية اضطرت إلى خفض رأسها والمضي قدمًا مباشرة. كان تنورتها مبللة تلتصق بركبتيها، وكلما خطت خطوة تقريبًا، كانت قباقيبها تغوص في الوحل، مما اضطرها إلى سحبها بكلتا يديها لتحريرها. حاولت القفز فوق بقعة طينية ظنتها أصغر مما هي عليه، لكن الأرض شفطت قبقابها بصوت مزعج وسحبته منها. تدحرجت إلى قاع الخندق، خطت بضع خطوات بشكل عشوائي، ثم توقفت مذهولة، غير قادرة على تحديد طريقها. صرخت بغضب، تقفز على قدم واحدة وهي تمسك بالأخرى بيدها.

سقطت منهكة ومجمدة من البرد. بعد كل تلك الالتفافات، لم يعد لديها أي أمل في العثور على طريقها مجددًا. أغمضت عينيها بإحكام، آملة أن يساعدها ذلك على الاستماع بشكل أفضل، ولكن دون جدوى. لم يكن هناك صوت سوى صخب الأشجار في العاصفة العنيفة؛ فقد توقف منذ وقت طويل صوت المطرقة التي كانت تدق فوق السندان. نبح كلب، لكن الريح حملت صوته بعيدًا في الحال. كان المسار الذي وصلت إليه مجرد أحد الممرات العديدة التي تسلكها العجائز أثناء عودتهن بأحمال من الحطب اليابس أو سلال ضخمة من الأغصان الميتة.

لابد أن وقت العشاء قد فات. ومهما فعلت، فسينتهي بها الحال إلى الذهاب إلى الفراش جائعة. لو كان والدها سكرانًا على الأقل! لكن لسوء الحظ، لم يكن بوسعها التأكد من ذلك، فقد مر أكثر من أسبوع على آخر محصول من البنجر (لم يكن هناك أي عمل، والمقهى لم يعد يعطيه دينًا، لأن السيدة إيزامبار، المالكة الجديدة، كانت قاسية مع السكارى). كان هناك دائمًا زجاجة الجن المخزنة خلف كومة الحطب، لكن والدتها، بسبب الألم الرهيب في صدرها، كانت تأخذ منها رشفات صغيرة وتعيد ملؤها بالماء. عادة، لم يلاحظ أحد هذا، لأن المهرب السابق لم يكن يلجأ إلى احتياطيه الشخصي إلا بعد عودته من المقهى، ممتلئًا بالخمر وجاهزًا ليكمل سكره. لكن الليلة...

بالطبع، لم تكن أفكار موشيت مرتبة بهذه الطريقة المنطقية. كانت غامضة، تقفز سريعًا من فكرة إلى أخرى. لو كان في مقدور الفقراء ربط صور فقرهم المختلفة ببعضها، لكانت حياتهم لا تُحتمل، لكن بؤسهم يبدو لهم مجرد سلسلة لا تنتهي من المصائب، متوالية من الحظ السيئ. إنهم مثل العميان الذين يتحسسون بأصابع مرتجفة العملات المعدنية التي لا يعرفون قيمتها. بالنسبة للفقراء، فكرة الفقر بحد ذاتها تكفي. فقرهم بلا وجه، بلا شكل محدد.

الآن وقد استسلمت، عادت موشيت إلى حالتها الغريزية، استسلامها اللاواعي كحيوان صغير. لم تكن قد مرضت من قبل، لذا لم يكن البرد الذي يلفح جسدها معاناة بقدر ما كان مجرد إزعاج آخر، واحدًا من كثير. لم يكن تهديدًا حقيقيًا، ولم يوقظ في ذهنها فكرة الموت. في أي حال، كانت فكرة الموت بالنسبة لها غريبة وغير واقعية، تمامًا مثل الفوز بجائزة كبرى في اليانصيب. في عمرها، كان الموت والتحول إلى سيدة نبيلة مجرد مغامرات خيالية بنفس القدر.

شيئًا فشيئًا، انزلقت بين جذعي صنوبرة ضخمة بدا أن الحطّابين قد نسوها. كانت طبقة الإبر السميكة على الأرض بمثابة سرير شبه جاف، حيث تسربت المياه تحتها. خلعت قبقابها الآخر وجواربها الصوفية، وعصرتها لتخرج منها الماء. كانت الريح تهبّ من كل اتجاه في آن واحد، تدور في دوامات وسط الغابة التي تتلاعب بها العاصفة. بين الأغصان المتباعدة، ارتفع عمود رقيق من الأوراق الميتة للحظة، ثم سقط أرضًا مجددًا، ممزقًا بفعل المطر الغزير.

ما إن سمعت موشيت وقع الخطوات، حتى رفعت بصرها ببطء ورأته يقترب منها، بحذرٍ بالغ وخطواتٍ متأنية، كحيوانٍ ليليٍّ متوجس. ارتسمت قامته الطويلة الداكنة على خلفية السماء الشاحبة، تمامًا كما كانت قد فعلت ظلّ مدام قبل قليل. أما سرواله العريض الذي يغطي نصف بنطاله المخمليّ،

فقد بدا وكأنه يُضفي عليه هيئةً غريبة، أشبه بتنورةٍ مهملة. لكن حتى قبل أن تتبين ملامحه، عرفتْه فورًا برائحة تبغه البلجيكيّ المهرب، ذاك الذي كان يحضره أحيانًا لوالدها، معبّأً في قالبٍ صلبٍ بلون اللهب، يحتاج إلى كسرٍ وتقطيعٍ ليُدخَّن.

"أوه، إذًا أنتَ؟ "قال بصوتٍ غامض.

توقفت حذاؤه الضخمة، التي تفوح منها رائحة الشحم والتراب الرطب، أمامها تمامًا. ثم فجأةً، انبثق ضوء المصباح يدويًّا ليخترق عينيها، فانعكست على وجهها المبتلّ هالةٌ من بريقٍ فظّ، كالسيف المشحوذ.

"الطقس سيئٌ جدًا، لا يمكنني نصب الفخاخ الليلة. سأعود أدراجي".

كانت موشيت ما تزال تقبض على جواربها المبللة وحذائها الوحيد المتبقي، لكنها، رغم قشعريرتها الباردة، حاولت أن تنهض بصعوبة، وجسدها كله يرتجف من التعب والبرد.

"تبًا لك، ألن تتجمّدي حتى الموت؟ أي لعبةٍ هذه التي تمارسينها؟ لماذا تختبئين هنا في مثل هذا الطقس؟ ألا تعلمين أن الماء يرتفع؟ وأين فردة حذائك الأخرى؟"

"أضعتها، يا ميسيو أرسين".

"أحمقاء أنتِ؟ لماذا لم تعودي مع رفيقاتكِ عبر الطريق؟ ما الذي يدور في رأسكِ الفارغ؟"

سلّط ضوء المصباح عليها من جديد. حاولت موشيت، في يأسها، أن ترتدي جواربها المبللة، لكن بلا جدوى. وقفت للحظة في قلب الدائرة المضيئة، ساقٌ ممدودة وأخرى مثنية، عاجزة عن الحركة، كطائرٍ مذعور علق في شركٍ لا مفرّ منه. ثم، وكأنها انهارت فجأة، سقطت جالسة، مشلولةً من وهج الضوء الذي كان يطاردها بلا رحمة.

"إن ذهبتِ إلى بيتكِ دون حذائكِ الآخر، فلن يرحموكِ من العقاب، أتعلمين؟ أخبريني، أين فقدته؟"

رفعت موشيت بصرها إليه، محاولةً أن تتبين ملامحه الغارقة في العتمة. لم تكن تخشاه، تمامًا كما لا تخشى الكائنات التي اعتادت وجودها في حياتها. لكنه، برغم ذلك، بدا لها غريبًا بعض الشيء، ثمة نبرةٌ زائفة في صوته، شائبةٌ خفيةٌ لم تستطع إدراكها تمامًا، لكنها أحست بها كالسوط الذي يُلهب ظهرها، فاهتز جسدها دون وعيٍ منها.

"ما بالكِ الآن؟ تبدين كمن لسعته الدبابير! قولي لي أين حذاؤكِ، بحق الله"!

بات صوته حادًا، آمرًا، كالسياط التي اعتادت أن تُلهب جسدها الصغير. وكانت تعلم أن الوقت قد تأخر، وأن والدها لن يتسامح مع عودتها المتأخرة، لكن مهما توعّدها أحد، لم يكن بإمكانهم إجبارها على الكلام حين لا تكون مستعدةً له.

كم مرة وقفت في الفصل تتلقى توبيخات مدام الطويلة بلا أدنى انفعال، تستمع إلى كلماتها دون أن تعيها؟ لكنها، في المقابل، كانت تنهار أمام إيماءة واحدة، أو كلمة عابرة، تصيبها في العمق بلا هوادة. حينها كانت مدام تكتفي بالقول" :يا إلهي، ربما أزعجتُ الآن الآنسة موشيت؟"، فتتعالى الضحكات في أرجاء الصف. أما والدها، فلم يكن ليعبأ بكل هذا، بل كان يختصر الأمر بعبارةٍ واحدة" :ها هي تسحب وجه الخنزير مرةً أخرى"!

تراجعت موشيت قليلاً، تستند إلى جذع الصنوبرة الأكبر، تمسح وجنتيها المبللتين بظاهر يدها المرتجفة. شريطها الصغير، الذي كان يثبت ضفيرتها القصيرة، قد تمزق على الأغصان المتشابكة. تساقط المطر فوق خصلاتها الرقيقة، تلك التي كانت تدهنها بالزيت كل يوم أحد، وكأنها تحاول بذلك، ولو للحظةٍ قصيرة، أن تفرض عليها نظامًا وسط فوضى حياتها.

أما أرسين، فكان ما يزال ينظر إليها. لم تستطع رؤية عينيه، لكن أنفاسه كانت واضحةً تمامًا، تهدر في الظلام كريحٍ خافتة، لا تزال تتربص بعاصفةٍ أخرى.

"هيا بنا. لقد تحدثنا بما فيه الكفاية. الماء يرتفع".

سار أمامها، فتبعته. كان ضوء المصباح الشاحب يجعل الظلمة أكثر كثافةً، أكثر غدرًا. تعثرت بجذوع الأشجار، وانغرست إبر الصنوبر في قدميها العاريتين كأشواكٍ حادة. لم تجرؤ على طلب التمهل منه، فقد وُلدت بطاعة الفلاحة، تلك الطاعة التي تتيح لهن توبيخ السكير وإهانته، ثم السير إلى جانبه على أي حال، متماشيات مع خطاه كما لو أن إيقاعهن قد سُلب منهن منذ الولادة. كان ثوبها كالكفن المبلل، يلتصق بجسدها المرتجف. لم تعره انتباهًا، فالبرودة لم تعد تؤثر فيها، كأنها غدت جزءًا من لحمها. كانت قدماها وجسدها مخدرين، لكن ثمة خواءً في صدرها، شعورًا بالغثيان، فراغًا ثقيلاً يكاد يخنقها. لم تكن ترى سوى اهتزاز كتفي رفيقها المنتظم أمامها.

"توقفي"!

لكنها سمعت الأمر متأخرة. خطت خطوة أخرى، سقطت على ركبتيها، ثم نهضت مترنحة. وجدت نفسها في قلب فسحة لم تَعرفها من قبل. توقف المطر، لكن الريح كانت أكثر جنونًا الآن. فوقها، كانت الغيوم الشاحبة تتدافع مسرعةً، والريح تصرخ كهدير نهرٍ هائج.

"تعالي إلى هنا"!

اضطرت إلى التقدم بضع خطوات. كانت من الإرهاق بحيث لم تنتبه لانزلاق قدميها العاريتين على المنحدر الطفيف، فمدت يدها بلا تفكير، وأمسكت بيد رفيقها لتنهض.

"انحني"!

دخل الكوخ أولاً، وألقى بحقيبته أرضًا. سقطت بصوت خافت، لكنها كانت ممتلئةً بالأرانب، التي لم تيبس تمامًا بعد، بل كانت جلودها تلمع تحت الضوء، ملتصقةً بدمها وماء المطر.

"أراهن أنكِ لم تعرفي كوخ زيداس من قبل. أغبى أماكن الاختباء هي الأفضل دومًا. لا أحد يكترث لكوخٍ متداعٍ متسخ. العام الماضي، جاء بعض الصيادين من بولوني بشباكهم، اصطادوا من الحجل ما اضطروا لنقل الغنيمة على دفعتين. في طريق العودة، انكشف أمرهم على طريق بلانجي، وصلت الشرطة، وكنتُ قد خبأت هنا طريدةً تساوي أكثر من خمسة آلاف فرنك. فتشوا السهل بأكمله، حتى إنهم وجدوا مخابئ قديمة تعفنت فيها القشوش، لكنهم لم يفكروا لحظةً في البحث داخل هذا الكوخ. ولو فعلوا، لما وجدوا سوى كومةٍ من الحطب وسترةٍ قديمة"...

لم تكن تسمع ما يقول، كانت قد انهارت في زاوية الكوخ، جالسةً على الأرض العارية. تدفق كلماته أغرق عقلها، لكن حواسها كانت يقظة، يقظةً لخطرٍ غامض، خطرٍ كان يتسلل بين أنفاسه، بين حركاته. وما إن استشعرت الخطر، حتى استحال إلى قلقٍ كامن لا يهدأ بسهولة.

كان أرسين، بيديه الطويلتين، اللتين بدتا رغم قذارتهما أشد بياضًا من أيدي رجال القرية، ينبش الأرض ككلبٍ يبحث عن عظمة مدفونة. نثر الأوراق الميتة حوله حتى وجد بابًا خشبيًا صغيرًا، لا يزيد عن غطاء صندوقٍ عتيق، مزودًا بحبلٍ كقبضة. رفعه، انحنى، ثم نهض مجددًا.

"اشربي هذا".

لم يكن ثمة مجالٌ للرفض.

الحدة في صوته طمأنت موشيت أكثر من أي كلمةٍ ودودة. لم يكن لديها سوى وسيلةٍ واحدة للدفاع عن نفسها: الصمت والثبات. كانت بالكاد تدرك كم طال تجوالها في الغابة، وكم أنهكها ذلك. عضت بلا وعيٍ على عنق الزجاجة الملفوفة بالقماش، تلك التي كانت تفوح منها رائحة النبيذ الحامض.

اندفع السائل الحارق إلى جوفها كالرصاص المصهور. شعرت بالإرهاق يسري في أطرافها، يتسلل إلى كل موضعٍ منكسرٍ في جسدها، إلى كل كدمةٍ كانت تؤلمها حتى تلاشت كل الأحاسيس إلا الخدر الثقيل.

كان أرسين قد ألقى ببعض الحطب على الموقد الطيني البدائي، خلع سترته الجلدية، ورمى قميصه الصوفي وراءه. تحت وهج اللهب المفاجئ، لمع صدره العاري كالنحاس المصقول.

"تعالي لتدفئي. عليّ أن أرحل، لكن من الأفضل انتظار مرور أسوأ ما في العاصفة. نعم، إنها إعصار، كما يقولون. لم أرَ شيئًا كهذا منذ عشرين عامًا، منذ أن كنت صبيًا يذهب إلى المدرسة. بدأ هناك، فوق البحر، بعيدًا. شق طريقه بمحاذاة الساحل الإنجليزي، حتى بلغ بولوني. حينها، كان الظلام حالكًا، حتى إن الناس خرجوا إلى الشوارع ليروا ما يحدث. كانت الريح صامتة، غير أنها كانت تزداد اضطرابًا كأنها تكتم شيئًا عظيمًا. ثم فجأة، هناك، من الشمال الغربي، بدأ البحر يفور كالماء في قدرٍ يغلي. ومع ذلك، كان الصمت سيد المكان. لا شيء سوى ذلك الفوران العجيب. ثم، دون سابق إنذارٍ، ارتفع البخار حول مستودع الجمارك—لم يكن دخانًا، كان بخارًا، وكأن الهواء ذاته يغلي. ثم رأينا سقف مستودعٍ يقتلع ببطء، يتثاءب كما لو كان مخلوقًا أسطوريًا، تنينًا هائلاً يفتح فكيه من بعيد. بعدها، ارتفع السقف في الهواء، مع أخشابه، كأشرعةٍ ممزقة، وتحطم في انفجارٍ مروع! يمكنكِ أن تتخيلي، نحن الأطفال، كنا نراقب كل شيء بفمٍ فاغرٍ. وعندما اجتاح الإعصار المدينة، اهتزت الأرض تحت أقدامنا. لكن العجيب أنه في قلب الإعصار، لا تشعر بقوته، كل شيء يُسحب نحو الأعلى، فتجدين نفسكِ في فراغٍ مطلق. لن تسمعي شيئًا، لولا تساقط ألواح السقف والهياكل، كانت تنهال كما لو أن المدينة كلها تتعرض لقصفٍ ناري. كانت الدخان يملأ السماء، فوق البحر، فوق البيوت، كما لو أن العالم كله قد اختفى في زوبعةٍ من العدم".

كانت خبرة موشيت تخبرها أن أرسين كان مخمورًا، وإن كان سُكره مختلفًا عن سُكر والدها.

لم يره أحدٌ يومًا يترنح على الطريق، أو يتهاوى على الجدران كحيوانٍ جريح يبحث عن جحره. كان يحتقر أولئك الذين يفعلون ذلك، يسميهم "الحمقى"، "الرعاع الذين لا يطيقون الشراب"، أولئك الذين

يتباهون بضعفهم حين يسكرون. كان فخورًا بأنه ليس من أهل هذه القرية، بأنه منحدر من بولوني، ابنٌ لامرأة بريتونية وأبٍ مجهول. كان الشراب عادةً يجعله صامتًا، لكن أحيانًا، كما في هذه الليلة، كان يتحدث بصوتٍ هادئ ومتزن، يشوبه ضوءٌ غريبٌ في عينيه. وعندما كان يبدأ بسرد حكايات البحر (فقد كان بحارًا في شبابه)، لم يكن من الحكمة أن يضحك أحد. كان يبدأ بالتمايل، إشارةً لا تخطئها العين على غضبه، ذلك الغضب الذي كان الجميع يهابه، ليس لشدته، بل لاختلافه، لغرابته، ولأن أحدًا لم يكن يستطيع التنبؤ بما قد يفعله.

"اسمعي"، قال بصوتٍ خافت، "ها هو الريح يعصف بالسهل. بعد خمس دقائق سيشتد فوق التلال. لو وضعتِ أذنكِ على الأرض، لسمعتِ وقع خطىً متسارعة، كأن الأرض نفسها تهرول. الطقس كهذا يشعل الدمَ في العروق، إنه طقس الرجال".

رفع الزجاجة بيدٍ واحدة، وارتشف بنهم، شفتيه متقلصتين كطفلٍ يرضع.

"ستسكر يا مسيو أرسين"، همست موشيت بهدوء.

"لا بد أن أسكر الليلة. أنسى نفسي. أنسى كل شيء. عندي هموم".

امتدت يده الطويلة، تائهةً ومترددة، ثم أخذت تلامس ظهرها وفخذيها بخشونةٍ ثقيلة.

"جيد. لقد جفتِ الآن. مع هذه الريح، قد تتطاير الجمرات في الكوخ ونحترق مثل الفئران. لم تدرِ أن مؤخرتكِ كانت فوق كومةٍ من الخراطيش، أليس كذلك؟ تخيلي أي انفجارٍ كنا سنحظى به"!

أجبر نفسه على الضحك، ضحكةً جافة لا حياة فيها. أرادت موشيت أن ترد عليه بلباقة، لكنها شعرت بشيءٍ أقوى من إرادتها يمسك بصمتها كإحكام قبضةٍ باردة حول حلقها. كانت حرارة الشراب قد بدأت تتلاشى من جسدها، وجفونها تثقل. كانت ترغب في النوم، لكن الغرفة كانت مليئةً بالخطر، وكانت تعرف ذلك.

"أنتِ قليلة الكلام، وهذا شيءٌ نادرٌ في فتاة".

مد يده إلى جيب سترته المعلقة على الحائط، وأخرج ساعةً فضية ضخمة.

"متى خرجتِ من المدرسة؟"

"لا أدري"، أجابت موشيت بحذر.

"السادسة والنصف تقريبًا، خرجت قبل البقية".

"بمفردكِ؟"

"نعم".

"لم يركِ أحد؟"

"كيف لي أن أعلم؟ لماذا تسأل يا مسيو أرسين؟"

انكمش أنفه كأنف قطةٍ تشتم خطراً. رفعت موشيت كتفيها، ولكن بالكاد، وبطريقةٍ بالكاد لاحظها هو. لم تكن كل الضرباتٍ التي تلقتها طوال حياتها قد أخضعتها، لكنها علمتها الحذرَ، وعلمتها كيف تخفي ازدراءها لرجالٍ يفقدون صوابهم عند الغضب.

"هربتُ، مسيو أرسين".

"وكنتِ ستعودين إلى البيت عبر الحقول؟"

"نعم".

"اسمعي جيدًا ما سأقوله لكِ. لم تأتي عبر الحقول. أنتِ سلكتِ طريق لينيير، كما ينبغي، بسبب سوء الطقس. ربما حتى ذهبتِ إلى لينيير لتشتري كراتَ زجاجيةً".

"كرات؟ وبأي نقود؟ ليس معي شيء، مسيو أرسين".

"هاكِ بعض المال. قولي إنكِ وجدته. إذن، كنتِ في طريقكِ إلى القرية، وتوقفتِ عند زاوية لا بالود لأن الطقس كان سيئًا، مفهوم؟"

"نعم، مسيو أرسين. فهمت".

دفعت القطع النقدية في جيب مئزرها، وراحت تدفئها بين أصابعها. لم يكن لديها يومًا هذا القدر من المال، وكانت تلك القطع المعدنية تمنحها شعورًا غريبًا، كأن ملمسها نفسه يبعث على الطمأنينة.

ثم، فجأة، بدّل أرسين قصته.

"إذن، لم تريني عند مفترق الطرق. قولي إنكِ رأيتني خارجًا من مقهى دوبلوي—إنه صديق لي—وإنني أخبرتكِ أنني كنت في باسومبيير لأجلب بعض الفخاخ".

"فخاخ؟ تريدني أن أذكر الفخاخ للشرطة؟"

ضحك ضحكةً قصيرة، ناعمة، كأنه يختبرها.

"أنتِ فتاة ذكية"!

أفرغ آخر ما تبقى في الزجاجة، دار السائل في فمه للحظة، ثم بصقه في الرماد المتوهج عند قدميه.

"من الأفضل أن يُقبض عليكِ بجريمةٍ صغيرة بدلاً من جريمةٍ كبيرة، أليس كذلك؟"

موشيت تراقب ألسنة اللهب المتراقصة، وكأنها ذباب أزرق صغير يحلق فوق كحولٍ مشتعل. كان وجهها الصغير يحمل مزيجًا من الاستسلام والمكر. لم يكن غريبًا عليها أن تضطر للكذب. فقد كان والدها يومًا ما مهربًا عندما كانوا يعيشون على أطراف المستنقعات بالقرب من بيربلوكي. كانت تلك المستنقعات خطرة إلى حدٍّ لا يمكن اجتيازها بعد حلول الظلام إلا برفقة كلبٍ قادر على استشعار المواضع الغادرة، حيث يخفي السطح القاسي للوحل تجاويف لزجة يمكنها ابتلاع رجلٍ بأكمله، ببطء، في غضون عشر دقائق. كانت حينها صغيرة، أما اليوم، فقد أصبحت أكثر مهارة في الكذب. كل كلمة سمعتها للتو حفظتها في ذاكرتها بدقة، كل شيء وضع في مكانه الصحيح.

كان أرسين يتنقل في الكوخ ذهابًا وإيابًا، وكأن صغره لا يحدّ من حركته. كان يتحرك بطمأنينة، كحيوان بريٍّ اعتاد قفصه في إحدى معارض الحيوانات المتنقلة التي رأت موشيت لمحة منها ذات يوم من خلال فجوة في السياج.

فجأة، قال وهو يحدّق فيها: "أنتِ لستِ كغيركِ من الفتيات، أنتِ مختلفة." ثم أردف: "سأبحث عن حذائكِ، فقد نضطر للسير لمسافة طويلة".

توقف عند عتبة الباب لحظةً قبل أن يخرج. كانت قطرات المطر تلمع على ظهره العاري، تعكس وهج النار المحتضرة.

بقيت وحدها. جفت ملابسها، ولم تعد تشعر بالخفقان في صدغها، بل تحولت نيران الجوع داخلها إلى شعور مريح، كأنها سكينةٌ تغمرها. كانت حواسها كلها خامدة، ما عدا سمعها. دون أدنى جهد،

استطاعت تمييز الأصوات المتداخلة القادمة من الخارج—أنفاس الريح الأخيرة في قمم الأشجار، تقاطر المطر المتباطئ، وأحيانًا صوت غصن مكسور يتهاوى ببطء بين الأشواك حتى يستقر في وحلٍ لن يتحرر منه أبدًا.

فجأة، توقفت يدها عن العبث برماد النار الباردة، وانقبضت أصابعها تلقائيًا، وفي ذات اللحظة، انتصبت جالسة على ركبتيها. لقد سمعت طلقتين ناريتين، منفصلتين، لكنهما بدا كأنهما اختنقتا في بُعدٍ غامض.

نظرت بسرعة إلى بندقية أرسين. كانت لا تزال معلقة على مسمارها. في كل الأحوال، لا يمكن أن يكون قد ابتعد كثيرًا بعد. ربما كان أحد الصيادين المتجولين قد أطلق النار قبل أن يلجأ إلى ملجأه؟ لكن التباعد بين الطلقتين لم يكن يوحي بأنهما خرجتا من فوهة بندقية مزدوجة.

مرة أخرى، عادت ذاكرتها إلى ليالي طفولتها في الكوخ الطيني على أطراف السهل. أكثر من مرة، كان المهربون، وهم يتلمسون طريقهم في الظلام، يطلقون رصاصات متقطعة، كنداءٍ أخير لرفاقهم الذين كانوا مشتتين في العتمة، فيجيبهم الآخرون بصفيرٍ يشبه نداء بعض طيور المستنقعات. كانت تلك الطلقات، حين تطلق على مسافات بعيدة، تحملها الرياح الكثيفة كما يحمل الماء العميق الصوت إلى مسافات شاسعة. لم يكن صوت الرصاص هو ما كانت تتذكره، بل ذلك الارتجاف الذي يصيب نوافذ الكوخ، مما يجعلها تستيقظ مذعورة على سريرها المصنوع من الخرق البالية.

عاد أرسين بعد قليل، وجد حذاءها المبتل وألقاه نحوها قائلاً: "ظننتُ أن المياه جرفته بعيدًا. لقد حملت السيول معها كل شيء، حتى أرنبًا مسكينًا—يبدو أن بعض الحجارة حطمت عموده الفقري. والتيارات هناك قوية لدرجة أنها قد تسحبكِ معها بسهولة. المياه تغلي مثل زبد البيرة".

استطاعت أن تشعر بثقل نظرته مسلطة عليها. ثم سألها بنبرة خافتة: "هل سمعته؟"

طلقة نارية أخرى اخترقت الليل. انتظرا، محبوسيَ الأنفاس، لكن الثانية لم تأتِ.

تمتم أرسين بشتيمة، وقال: "لو كان لدي زجاجة أخرى من الجن، لذهبتُ إلى هناك الآن".

ثم نظر إليها بحدة وأضاف: "أنتِ فتاة ذكية، مثل الحجل الماكر. علينا أن نخفي آثارنا. لكن أولاً"...

جلس القرفصاء أمام المدفأة، رفع يده اليسرى إلى مستوى وجهه، وحدق فيها مطلقًا صفيرًا منخفضًا.

"تعالي إلى هنا، خذي المصباح من جيب سترتي الجلدية وأمسكيه جيدًا. هيا، كأنكِ ابنة مهرب حقيقي. إذا شعرتِ بالغثيان، فأغلقي عينيكِ".

كان ظهر يده يحمل جرحًا غريب الشكل، تحيط به كدمة زرقاء، ويبدو كأنه يتوهج تحت الضوء الخافت. كانت أصابعه متورمة، وقطرات المطر التي غسلت الجرح جعلته يلمع في الظلمة.

"عضة... لعنة الله على هذه العضة". بيده الأخرى، فرّق بين الجمر المتبقي، التقط جمرة صغيرة ونفخ عليها.

"حسنًا، فلنحظَ ببعض الضوء".

شدّ خرقةً بإحكام حول معصمه. أصابعه ازرقت، والجُرح بدا منتفخًا، واضح المعالم. كان مشوَّشًا بعض الشيء، لكن آثار الأسنان كانت ظاهرة جليّة... لم تكن لثعلبٍ ولا لغرير.

بلّل أطراف أصابعه بلعابه والتقط الجمرة المتوهجة. كانت بحجم الجرح تمامًا. وضعها عليه ببطء، بلا عجلة، ثم نفخ عليها مجددًا. أطلقت اللحم أزيزًا مروّعًا، لكن موشيت لم تُلقِ نظرةً على الجمرة، بل ثبّتت عينيها على وجهه، الذي غاب في ظلٍّ خافت، محاطًا بهالة ضوء خافتة تنعكس من الجدار.

اختفى عنه ذلك التبجح الوقح، وبدا متحفظًا، غارقًا في ذاته. عنقه، الطويل والناعم، يكاد يشبه عنق امرأة، انتفخ، وبرز فيه وريد غامق اللون. شفتاه ارتجفتا قليلاً، لكن لم يفلت منهما صوت.

لطالما شعرت موشيت أنها غريبة بين أهل القرية، أولئك الذين يشبهون الماعز في سوادهم وشعرهم الخشن، والذين كرهتهم كرهًا دفينًا. حتى في صباهم كانوا يتضخمون بسرعة، تملأهم سِمنةٌ غير صحية، بينما تُفسد القهوة التي يحتسونها طوال اليوم أعصابهم، حتى يصبح لونها منقوشًا على جلودهم.

لم تكن تدرك أنها تحتقر أحدًا، لأن الاحتقار في نظرها أمرٌ يتجاوز قدرتها، لم يخطر ببالها كما لم تخطر ببالها امتيازات الأغنياء والمتسلطين. بل لعلها كانت ستُصدم لو أخبرها أحدٌ أنها تحتقر "مدام ."ما كانت تراه سوى رمزٍ لذلك النظام الذي تمرّدت عليه طوال عمرها. وحين كانت تقول لها

المعلّمة بين الفينة والأخرى أنها لا تصلح لشيء، لم تكن موشيت تُجادلها. لم يكن في ذلك ما يُخجلها أكثر من ملابسها الرثّة.

لطالما تمتعت بنوعٍ من اللامبالاة الوحشية تجاه سخرية الفتيات وهمسات الصبية المشينة. وفي صباحات الآحاد، حين كانت أمها ترسلها إلى القرية لشراء مؤونتهم الأسبوعية من اللحم المقدد، كانت تتعمد الخوض في الطين، حتى تصل إلى الساحة الرئيسية وهي مغطاة بالوحل، في اللحظة التي يخرج فيها الجميع من قدّاس الكنيسة.

لكن فجأة... حدث شيء ما...

نفخ على الجمرة مجددًا، ثم ألقى بها عند قدميه. تلاقت أعينهما. كانت تريد منه أن يفهم ما يجتاحها، ذلك الإحساس المباغت، الذي لم تستطع أن تعرّفه سوى بأنه أشبه بلسعة الكحول الخام على اللسان. لم تستطع أن تُطلق عليه اسمًا. أيّ صلةٍ له بما يسميه الناس حبًّا، أو بالأفعال التي شاهدتها بأمّ عينها؟

كل ما استطاعت فعله هو أن تبقي الضوء ثابتًا على يده المصابة.

"افتحي الباب ".قال بصوت قاطع" .سأخرج لنثر الرماد. إذا سألك أحد، لم نكن هنا اليوم، أتفهمين؟ لا تخبري أحدًا، حتى والدك. سأخرج أولاً، واتبعيني بعد ذلك".

كانت الجلود الصلبة لحذائها الخشبي تؤلم قدميها بشدة، لكنها كانت مشغولة بمراقبة رفيقها أكثر من الشعور بالألم. لم يكن الظلام حالكًا كالسابق الآن.

كانا يبتعدان عن الدروب المألوفة، يخترقان الشجيرات الكثيفة، حتى فقدت موشيت أي إدراكٍ للاتجاهات. لكنها سرعان ما استسلمت للأمر.

فجأة، وجدت نفسها عند الطريق، على مقربة من "مقهى دوبلوي ."كان الوقت قد تأخر كثيرًا، حتى أن النوافذ أُغلقت، ولم يكن هناك أي ضوءٍ يتسلل من الداخل.

اتجه أرسين نحو الفناء الخلفي، وطرق على بابٍ منخفض. فتحه شخصٌ بهدوء، وتناهت إلى مسامعها أصواتٌ مكتومة، لكنها لم تستطع تمييز أي كلمة.

وحين عاد إليها، كان يبتسم.

"الصبي ليس كما ظننت. لا بأس. سنُدبر أمرنا بدونه. أعلم جيدًا ما أفعل، حتى وإن كنت سكرانًا. علينا أن نواصل السير قليلاً. إذا تعبتِ، يمكنني أن أحملك".

تحدث إليها وكأنها ندٌّ له. آه، لكنها لم تكن متعبة، ولا خائفة، بل على استعدادٍ لأن تمشي الليل بأسره، فلا حاجة لأن يقلق بشأنها!

هذه الكلمات ترددت في عقلها بصوتٍ خافت وهادئ، لكنها لم تستطع سوى أن تهزّ رأسها بعناد، دون أن تنبس ببنت شفة.

توقفا عند كوخ آخر، كانت موشيت تعرفه جيدًا. كان يُطلق عليه "الملتقى"، حيث كان الحطّابون يودعون فيه أدواتهم في فصل الربيع.

كان الكوخ مهجورًا، وانفتح بابه عند أول ركلة. "حسنٌ أنني جئتُ إلى هنا أول أمس"، قال أرسين. "هناك خ شبٌ جاف وقليلٌ من الـ شمع. سنـ شعل نارًا حقيقية. أريد أن يكون هنا كومة رماد تكفي لعربةٍ غدًا، حتى أتمكن من القول إنني قضيتُ اليوم كله هنا، في الجفاف".

جلسا متقابلين عند الموقد، وحدّقت موشيت في قباقيبها الخشبية. التفكير لم يكن عادةً مألوفة لها، فلم تكن تدرك الجهد الهائل الذي كانت تبذله لفهم ما يحدث. لطالما كانت تهرب من ذاتها عبر الأحلام، لكن مضى زمنٌ طويل منذ أن فقدت مفتاح تلك الممرات السرّية التي تقود المرء إلى أعماق نفسه. بدا لها أن حياتها كلها قد انكمشت في نقطة مؤلمة واحدة، تتوهج كحجرٍ كريم صلد، كالألماس—ذلك الحجر السحري الذي قالت "مدام "ذات مرة إنه يُولد من قلب الفحم.

لم تجرؤ على النظر إلى أرسين، بل كانت تخشى حتى سماع صوته. كلمة واحدة منه، وسط هذا الصمت، كفيلة بأن تحطمها كما يتحطم الزجاج.

"اسمعي، "قال فجأة، "بما أنني أخبرتكِ بجزء، لا بأس أن تعرفي البقية. على أي حال، لن تخرجي غدًا من عتبة بابك دون أن تصلي إليكِ الأحاديث. أعرف الناس جيدًا، لا يؤذون ذبابة، لكن إن رأوا دمًا مسفوكًا، لابد أن يغمسوا ألسنتهم فيه. فليكن! عادةً، لا أثق في فتاة، خاصةً فتاة مثلك، مجرد طفلة. لكن حاولي أن تنظري إليّ... كرجل".

حاولت، بشجاعة. لكنها في كل مرة تلتقي عيناها بعينيه، كانت تنصرف بنظراتها بعيدًا، كقطرة زيتٍ تفرّ على سطحٍ أملس. بصعوبة، أبقت بصرها منخفضًا عند فتحة قميصه، حيث بدت بشرته السمراء، محفورة في ظلٍ أعمق.

"يا للخسارة، "قال وهو يهز كتفيه، "أنتنّ النساء! لا يهم صغر سنكن، دائمًا ما تصنعن تلك الوجوه المتجهمة. انظري إليّ، أو لا تنظري، الأمر لكِ. لكن لا تظني أنني لم أفكر فيما أفعل. قد أكون مخمورًا، لكن عقلي لا يزال معي. هل تعرفين لماذا اهتممتُ بكِ قليلاً؟ منذ أن رأيت والدكِ يضربكِ في ليلة المعرض في سان فنون—أتذكرينها؟ كان يجلد مؤخرتكِ بعصا بندقيته، ولم يستطع أن يمنعكِ من الاستدارة لمواجهته، فضربكِ على وجهكِ. ومع ذلك، جلستِ عند النافذة، ونفضتِ تنورتكِ دون أن تنزل من عينيكِ دمعة واحدة. لقد تلقيتِ أكثر من ضربة في طفولتي، لكنكِ جعلتني أشعر بالخزي. كنتِ تبدين مثل... مثل"...

عجز عن إيجاد الكلمة المناسبة، فاكتفى بالتصفير بخفوت. وفجأة، تجمد وجهه كصخرةٍ صلبة.

"أعتقد أنني قتلتُ رجلاً، "قال" .أو على الأقل، لم أترك له فرقًا يُذكر عن الموت".

أطلقت موشيت زفرةً عميقة، مرتين، دون أن تتحرك. بدت وكأنها تتثاءب. ظنّ أنها لم تسمعه.

"إنه ماتيو، أليس كذلك؟ "قالت بعد صمتٍ طويل.

"نعم. كيف عرفتِ أنه هو؟"

"رأيته يمرّ أمام بيتنا هذا الصباح. قال أبي إنه كان يحمل غطاءه العسكري فوق كتفه. 'ماتيو سيقضي الليلة في الخارج'، قال. 'من الأفضل للشاب أرسين أن يبقى متيقظًا".'

"يليق به أن يقول ذلك. الناس يرددون هذا الكلام منذ أسابيع. يكفي أن يُطلّ ماتيو من نافذته، ليبدأوا بالتحذير: 'أرسين عليه الحذر، ماتيو سيقبض عليه.' حسنًا، لكنني أنا من قبض عليه".

تحدث بنبرةٍ فيها شيء من الأسف. الاعتراف الذي خرج منه الآن خفّف من قسوة ملامحه، وبدا وكأن عينيه تفتشان في الفراغ عن ذكرياتٍ قديمة، نصف منسية...

"أظنّ أن هذا الإعصار اللعين قد أفسد مزاجي. كان الهواء ثقيلاً، كأنه غراء يلتصق بجلدي، وخانقًا كأنه يوشك أن يخنقني. كنتُ أنبشُ إحدى

الم صائد التي و ضعتها قرب حقل 'كامي'ـــم صيدة ربيعية جيدة دفعتُ فيها ثلاثين قطعة كاملة. مع هطول المطر الغزير كهذا، لا يمكنك أن تضمن شيئًاـــقد تكون انجرفت حتى 'سان فاست' رغم أنني ثبتّها بحذرٍ وإحكام".

"ماذا تفعل هنا إذن، يا أرسين؟ "قال لي، "هل ترغب في رحلة إلى الجهة الأخرى من بحر الرنجة؟ قد تحصل عليها بسهولة".

قال ذلك لأنه لمح يدي تنزلق نحو جيب سروالي وأنا أستدير. قمت بإخراج كل ما بداخله، فلم يكن فيه سوى غليوني وكيس التبغ.

"اسمعني، "قلت له، "لستُ أحمق. ماذا سأجني إن ألحقت بك ضررًا؟ إن فعلتُها، فلن يكون مصيري المنفى، بل المقصلة. على أي حال، إن كنت تطمع في هذه اللعبة الصغيرة، فهي لك".

رأيتُ عينيه تتبعانها، وكأنه كان يتربص بها منذ البداية.

"حسنًا، "قال بلهجة قاطعة. استدرتُ لأغادر، لكنه استوقفني.

"لا تظن أنك أفلت بهذه السهولة، يا أرسين. لقد أقلقتَ راحتنا ليالي طويلة. تعتقد أنك بأمان لأن خلفك رجال 'آراس' و'بولون'، أولئك الصيادون الماهرون، الأشقياء الحقيقيون. لكن ماذا تمثل أنت لهم؟ واحد يذهب، فيحضرون عشرة غيره. عاجلاً أم آجلاً، سينالون منك، إلا إذا اختفيتَ من هنا".

"لا تراهن على ذلك، ماتيو، "قلت له.

بدا لي حينها غريبًا بعض الشيء. أدركتُ فجأة أنه كان مخمورًا، رغم أن العلامة الوحيدة على ذلك كانت وجنتاه الغائرتان وتلك الرعشة التي أصابت بؤبؤ عينيه وهو يحدّق فيّ. لم يكن يؤدي عمله فقط، بل كان يبحث عن تصفية حساب قديم.

وقفنا نحدق في بعضنا البعض دون أن نرمش. كنتُ أرغب في المغادرة، لكنني شعرت كأنني مغروسٌ في الأرض، وأذناي كانتا تضجان، ووهج الغضب بدأ يتصاعد داخلي.

عندما يبدأ ذلك الحريق بين لوحي كتفي، أعرف أنني إما أن أقاتل، أو سينفجر قلبي. لقد حدث هذا لي أكثر من مرة. يسمّيها المتعلّمون بالصرع، لكني لم أهتم أبدًا بالأسماء. كنت قد ابتعدت قليلاً، لكنني توقفت. كان يستدرجني، ووقعتُ في الفخ.

بدأ المطر يهطل مجددًا، قطراته كانت تتساقط كالرصاص المنصهر. كنا في غابة صغيرة، بالكاد توفر أي ملجأ أكثر مما يقدّمه العراء. كنا نتجمد رغم كل شيء، فقررنا الاحتماء تحت مجموعة من أشجار الصنوبر القديمة، قرب كوخ 'ديبونشيل.'

هل أيقظنا المطر من سُكرنا؟ لا أظن ذلك. الرجال من أمثالنا، حين نكون في حالة سُكرٍ خفيف، نصبح أكثر حذرًا. ولكن حين نتجاوز الحد، نصبح كالموتى... لا نبالي بشيء.

لم يكن أيٌّ منا يريد أن يبدو وكأنه يتراجع. لقد رأيتَ الكلاب تتصارع في الطرقات، أليس كذلك؟ إن مرّت شاحنة، فإنها تركض جانبًا، لكنها لا تهرب، بل تواصل القتال في مكان آخر. كان الأمر بيننا كذلك تمامًا.

لكن عندما وجدنا أنفسنا أخيرًا في الجفاف، تذكّرتُ العواقب التي قد أواجهها إن ارتكبتُ أي حماقة. كان الريح يعصف قادمًا من البحر، والأرض تهتزّ تحت أقدامنا كأنها ستبتلعنا.

"اسمعني، أرسين، "قال وهو يلوّي شفتيه بازدراء، "طالما نحن هنا، فأحذّرك من الاقتراب من 'لويزا'. لا أحب أن يعبث أحدٌ بأموري حين يتعلق الأمر بالنساء".

"يا لك من شرطي نزيه، "أجبته بتهكم، "لِم تستفزني إذن؟ ما دمتَ تستطيع فتح فمك وإرسالي إلى السجن في لحظة؟"

تدحرجنا على الأرض كالوحوش. لم أستطع الإمساك بعنقه بسبب سترته المصنوعة من الحبال السميكة. لكنه استطاع أن يغرس أسنانه في يدي.

"اللعنة! يا لها من عضة"!

ضربتُ رأسه بالأرض، لكن التربة كانت لينة فلم تؤثر ضربتي عليه. انزلقنا معًا على المنحدر، متشبثين ببعضنا البعض، حتى وجدنا أنفسنا في خندق، غارقين في الماء حتى خصورنا.

"اللعنة! كنا أغبى مما ينبغي"!

خرجنا منه بأفضل طريقة استطعناها. لمستُ جيب سترتي، وجدتُ قارورة الكحول خاصتي—لقد انفتح غطاؤها! أصابني الهلع من أن أفقدها كلها. فكرتُ" :من الأفضل أن أشربها وأتخلص منها، فبطني مكانٌ أكثر أمانًا لها".

لكنها كانت لترًا كاملاً، يا للعنة! وكنتُ بالفعل مترنحًا من الشراب. حاولتُ التوقف، لكن أنفاسي كانت مقطوعة، وعيناي كادتا تخرجان من محجريهما ككرات الزجاج.

"كان شاحبًا كالورقة، وأسنانُه تصطك ببعضها. نظر إليّ بنظرة غريبة، وكان مبتلاً أكثر مني، لأنني كنتُ قد سقطتُ فوقه. مددتُ إليه القارورة، وفي تلك اللحظة، عدنا صديقين من جديد. كان الإعصار في أشدّ حالاته، وحتى في ظلّ أشجار الصنوبر، اضطررنا إلى التشبث بذراع بعضنا البعض حتى لا يسقطنا الريح أرضًا. على أي حال، أنهينا اللتر كاملاً ونحن جالسان فوق جذعٍ ضخم، تحت قطعة قماشٍ مشمّع، والمياه تنساب عنها كما لو كانت ميزابًا. لم نكن حتى ننتبه لذلك. كنا قد صرخنا كثيرًا حتى تألمت حناجرنا، وكان الريح يمحو كلماتنا، كأنّ أحدًا يضربك على صدرك بقوة. ثم، ماثيو"...

توقف فجأة، ورفع يده إلى حلقه لبرهة، وقد تجمدت ملامحه في تعبير أحمق، يائس، وكأنه يبحث عن شيء ضائع. ثم أشرق وجهه قليلاً، رغم عذابه الذي بدا أنه قد نسيه للحظة. وبعد صمتٍ بدا لموشيت كأنه بلا نهاية، استأنف حديثه، ولكن بلهجة رجلٍ استعاد خيط ذكرى ممزقة، وهو يدرك أنه لن يتذكر منها إلا القليل، وأن البقية ستظلُ ضائعةً في الضباب.

"يحدث لي هذا أحيانًا) ".مرّر يديه فوق وجهه بتشنّج، كما لو كان يبعد ذبابةً غير مرئية" .(الطبيب يسميها 'نوبات الفراغ".'

ظلّ للحظة صامتًا، يُجاهد ليبتسم، لكن نظراته كانت شاردة على نحوٍ غريب. لاحظت موشيت أن إحدى عينيه انحرفت قليلاً إلى الأعلى، بالكاد بشكل ملحوظ.

"يبدو هذا غريبًا بالنسبة لك، أليس كذلك؟ حسنًا، لا حيلة لي في ذلك. ربما يكون بسبب ذلك الجن اللعين. لا تقلقي، ستعود إليّ الذاكرة. على أي حال، أستطيع تذكر معظم ما حدث—فقط التفاصيل هي التي تتداخل في رأسي. إنها كلها هناك، لكنها متشابكة، ككرة خيوط معقّدة".

كانت موشيت جاثمةً على عقبيها، مائلةً إلى الأمام، وذراعاها ممدودتان، ويداها تستندان إلى الأرض. بدت كهرّة صغيرة تترصّد شيئًا ما.

"ماذا تتوقعين من رجلٍ ثمل؟ لا يبقى في ذهنه سوى صورتين أو ثلاث، واضحة كنقوش محفورة. حسنًا، ما أذكره هو أنني كنتُ ممسكًا بالمصيدة من نابضها—كانت طويلة، بطول ستة إنشات كاملة، مصيدةٌ جيدة—ثم... خبطتين، مباشرةً على رأسه. سقط إلى الأمام. في البداية، كانت قدماه ترتجفان

بجنون، ثم بدأت تهدأ، ثم توقف عن الحركة تمامًا. كان وجهه منغرسًا في أخدود صغير بالأرض، وبدأت الدماء تملؤه. لا أذكر أي شيء مما حدث قبل ذلك. أما بعده، فأظن أنني بقيتُ واقفًا هناك، خائفًا من أن أقلبه. حتى لو لم أكن قد شققت جمجمته، كان ليختنق في الماء. لكن حين يموت رجلٌ، يمكنك أن تعرف فورًا. كان يرتعش كما ترتعش الأرنب عندما تلفّ عنقه".

مسح جبهته مجددًا.

"لكن حين سمعتُ الطلقات قبل قليل، ظننتُ أنه لم يمت. ظننتُ أنه يطلق النار لينادي رفاقه. في مثل هذا الطقس، لا يخرج أحدٌ للصيد. الطرائد تكون مختبئة في الأماكن الجافة. على أي حال، عرفتُ بندقيته من الصوت. إنها بندقية إنجليزية عيار اثني عشر، وكان يستخدم مسحوق إم، ذلك الذي يشتعل ببطء حين يكون الجو رطبًا".

موشيت لم تنخدع بمظهره الهادئ. وهي تنظر إلى وجهه، الذي كان مألوفًا لديها، بدا لها كما لو أنها تراه لأول مرة. أو بالأحرى، كما لو أنه الوجه البشري الأول الذي تتأمله حقًا.

كان تركيزها عليه عميقًا وحميميًا إلى حدّ بدا وكأنه امتدادٌ لذاتها. لم يخطر ببالها أن تتساءل إن كان وجهه وسيمًا أم لا. لم يكن ذلك مهمًا. كان ببساطة وجهًا خُلق لها، وجهًا بدا طبيعيًا في نظرتها، تمامًا كقبضة سكينها القديمة بين أصابعها. ذلك السكين الذي وجدته على الطريق ذات مساء، ولم تُرِهِ لأحد، والذي كان الشيء الوحيد الذي تملكه في هذا العالم.

تمنت لو أنها استطاعت أن تلمس وجهه، لكن لونه الذهبي، الدافئ كلون الخبز الطازج، كان كافيًا ليجعلها تشعر بالسعادة.

لم يكن وجهًا وسيمًا، هذا مؤكد. الوجوه التي رأتها أحيانًا في الصحف، وجوه نجوم السينما، كانت تخص رجالاً يبدون غرباء عنها تمامًا، رجالاً لن تعرفهم أبدًا، ولم تكن تثير فيها سوى مزيجٍ من الازدراء والغيرة. أمّا هذا الوجه، فقد كان يحمل شيئًا أخويًا، وديًا، وكأنه فجأة بات مألوفًا لها بقدر مألوفية وجهها ذاته.

كل اللذة التي وجدتها في التأمل فيه لم تكن نابعة منه، بل من أعماق نفسها، حيث كان هذا الوجه مختبئًا، كحبّة قمحٍ مدفونة تحت الثلج، تنبت ببطء في الخفاء. لم يكن ثمة شيء يمكنه أن يغيرّ سحره

أو دفأه، ولم يكن خاضعًا للزمن أو للمكان. وإنْ غاب يومًا، فسيعود، وفق إيقاعٍ طبيعي ومنتظم كإيقاع النوم أو الجوع.

لا شك أنها فكّرت في الحبّ من قبل، لكن كان عليها دومًا أن تتخيّل كائنات بعيدة كل البعد عمّن يحيطون بها كي تتمكن من قهر نفورٍ جسديّ لا إراديّ. غير أنّ خيالها كان يخونها سريعًا. أما الوجه الذي تراه الآن، والذي تحدّق فيه بكلٍ تلك الحنان العنيف، فلم يكن يربكها، تمامًا كما لم تكن تشعر بأي اضطراب حين تقع عيناها على انعكاس وجهها في المرآة الوحيدة في منزلها.

في الحقيقة، بدا لها وكأنه صورةٌ غامضة مزدوجة لوجهها، لكنها أحبّته ألف مرة أكثر، لأنها، دون الحاجة إلى مرآة، كانت تعرف أنه في بعض الأيام (كحين كانت مدام تسخر منها فجأة فتضرب كلماتها على الوتر الحساس، فيتدفق ذلك الاحمرار المهين إلى وجنتيها، ويرتجف ذقنها قبل أن تنفجر بالبكاء) كانت تكره وجهها وتزدريه.

أما وجه أرسين، فلم يكن يمكنها أن تبغضه يومًا، ولا أن تجده مثيرًا للسخرية. حتى ذلك الابتسام المشوّه الذي كانت تمقته حين يعلو وجه والدها وهو في سكرٍ شديد، لم يُثر فيها حين رأته على شفتي أرسين سوى شفقةٍ حنون، وشعورًا غريبًا لم تعرفه من قبل. لطالما كرهت الأطفال، لكنّها أحسّت الآن برغبةٍ غامضةٍ في حمايته، بصبرٍ لا ينفد يتجاوز أي اشمئزاز، بغريزةٍ أمومية وُلِدت فيها فجأة، هشةً كزهرة مايو.

"مسيو أرسين"، قالت، "إذا لم يكن ماثيو قد مات بالفعل، فما الفائدة من قولي إنني رأيتك خارج المقهى؟ علينا أن نفكر في شيءٍ آخر".

كان مسندًا ظهره إلى الجدار، يخبئ يديه خلفه، يحدّق إليها كما لو كان يزن كلماته. ظهرت قطرات العرق الضخمة عند جذور شعره، ثم انحدرت ببطءٍ على وجهه وصدره العاري.

"وما الذي يهم؟ "قال بصوتٍ ثقيل" .إن كان قادرًا على الكلام، فسوف يفعل. سيقول نعم، وسأقول لاـــالصحف ستحبّ ذلك. دائمًا هناك من سيقضي عليه، أنا أو شخصٌ آخر، وعندما تتلقى ضربةً على رأسك، نادرًا ما يكون لديك وقت لتدير رأسك لترى من فعلها".

"لكن إذا كنت تريدني أن أساعدك، فعليك أن تحاول التذكر"...

..."التذكر، التذكر. أنتِ فضوليةٌ جدًا، يا فتاة. رأسي يطن بجنون".

لمعت شرارة الغضب في عينيه الرماديتين لوهلة، لكنها سرعان ما خمدت. للحظة، ظنت موشيت أنها التقطت في ملامحه رجاءً غامضًا، نداءً مؤلمًا.

"ماذا تريدين أن أخبرك؟ كان هناك، بالفعل، ووجهه مغروسٌ في الوحل، والمطر يتساقط حوله، والمياه تتغرغر. رأيت ساقيه تتشنجان، أنا متأكد من ذلك".

كان وجهه قد أصبح رماديًا مميتًا، وجفنه الأيمن قد تدلّى حتى كاد يحجب عينه. لكنّ موشيت لم يُرعبها هذا بقدر ما أرعبتها شفتاه المائلة قليلاً، واللعاب المتجمع في زوايا فمه، وشفتيه الرماديتين المشدودتين.

ترنّحت واقفةً. لم يبدو أرسين وكأنه يراها. كان عليها أن تبذل جهدًا كبيرًا حتى تضع يدها على ذراعه، والتي كان قد طواها فوق صدره في حركة دفاعية مبهمة. كانت ترتجف، ولسانها جافًا وخشنًا إلى درجةٍ جعلت النطق بالكلمات يكاد يكون مستحيلاً.

"سأقول... كنتُ مختبئة... في الغابة... أنني رأيتكما معًا... أن ماثيو... أرسين، اسمع، اسمع! هل أقول إنه كان مخمورًا؟ يمكنك أن تثق بي... سأدافع عنك".

ترنّح مبتعدًا عن جدار المقصورة، يبدو كطفلٍ ألقى بنفسه على سريره، لا يزال مثقلاً بحلمٍ لم يكتمل بعد.

"موشيت"، تمتم، "لم أعد أرى بوضوح. مؤخرة رأسي تؤلمني. أنا متأكد أنني على وشك الإصابة بنوبة. لا تخافي، فقط تأكدي من أنني لا أضرب رأسي بالحائط".

سقط على الأرض كجذع شجرةٍ مُجتث. سمعت صوت ارتطام ذقنه بالأرض. كيف يمكن لإنسان أن يسقط هكذا دون أن يلقى حتفه؟ ثم رأت ظهره يلتوي، ثم انقلب وجهه للأعلى. كانت عيناه بيضاوين، وأنفه المتيبس أكثر شحوبًا من باقي وجهه. وفجأة، ومع تنهيدةٍ غريبةٍ متكسرة، تصلّب جسده مجددًا، حتى بدت كعباه ونهاية عنقه وكأنهما فقط من يلامسان الأرض.

كان صدره العريض، المحاصر في التشنج، ينتفخ ببطءٍ حتى كادت أضلاعه أن تخترق جلده. بقي هكذا للحظة، ثم اندفع سيلٌ من الخمر والرغوة من فمه. وفجأة، استرخت ملامحه، وعادت، بعد أن هدأ اضطرابها، ممتلئةً بمعاناةٍ ودهشةٍ جعلته يبدو كطفلٍ ميت.

جثت موشيت بجانبه، على مستوى كتفيه. ماذا عليها أن تفعل؟ لم يسبق لها أن رأت جثةً ممددةً هكذا، مباشرةً على التراب، دون سرير، دون كفن، دون غصن شجرةٍ في طبقٍ خزفي، ودون همسات العجائز الورعات اللواتي يسهرن حول الموتى كما يسهرن عند فراشٍ أثناء الولادة.

كانت تشعر بالعجز التام. الأحداث الغريبة التي شهدتها بدت حتميةً إلى درجة سلبتها أي إرادة للفعل. حاولت عبثًا أن تستوعبها، لكنها لم تفهم شيئًا. ربما كانت ستبدو مرعبةً لولا ارتباطها بها بمشاعر أقوى من الخوف نفسه.

تمكنت أخيرًا من دس يدها تحت رأس الرجل الملقى على الأرضية الطينية. كم بدا خفيفًا! أدنى ضغطٍ من أصابعها كان كافيًا لجعله يرتجف، ثم يميل إلى جانبٍ أو آخر.

رفعت رأسه بين يديها برفقٍ، كمن يحمل شيئًا هشًا وقيمًا. كانت عيناه مغمضتين، وعلى شفتيه بقايا ابتسامة خافتة. مسحت وجهه بطرف مئزرها، شاعرةً أن حياتها كلها تبتسم معها بتلك الابتسامة. لم تكنٍ تريد شيئًا. لو خطر لها في تلك اللحظة أن تطبع قبلةً على جبهته، التي كانت خصلات شعرها المبعثرة تلامسها بلطف، لفعلت ذلك. لكن الفكرة لم ترد في ذهنها.

كان شعورها، تمامًا مثل دفء جسدها، موزعًا في كل عروقها، دون أن يتمركز في صورةٍ واحدة محددة. كانت تحمل رأس أرسين كما لو أنها تحمل شيئًا نفيسًا، سهل الكسر أو الفقدان، دون أنٍ تجرؤ حتى على إراحته في حضنها.

وفجأة، بدأت تغني.

حدث ذلك تلقائيًا لدرجة أنها لم تدرك في البداية أنها تغني.

ظنت أنها تهمهم بلحنٍ سمعته مرارًا ينساب من المقهى—نغمةٌ راقصةٌ غريبة، قالوا إنها نغمةٌ زنجية—لطالما كرهتها، لكنها لم تستطع قطّ إخراجها من رأسها، على عكس الأغاني التي كانت مدام تعشقها، والتي لم تعلق أبدًا في ذاكرتها.

أحيانًا، حين كان والدها المخمور يعود ليلاً متأخرًا، يفتح الباب بعنف ليصطدم بالحائط ويوقظها من سباتها العميق، كانت تهمس بهذه الأغنية، برأسٍ مدفونٍ تحت الغطاء، حتى تعود للنوم من جديد.

طالما أنها كانت تتابع الإيقاع والشكل الغريب للحن في ذهنها، كانت تشعر بالدهشة من نجاحها، وفي الوقت ذاته بالخوف منه. كان الأمر أشبه بالانزلاق على منحدر مغطى بالثلج، لكن مع هبوطها، تلاشت تمامًا كل إحساس بالدوار والسقوط. كلما تجرأت على الهمهمة بصوت مسموع، كانت تفقد سحر اللحن، وفي لحظة، كانت تجد نفسها مشوشة بشكل غامض، ترتجف ويدهشها الأمر، ويداها الصغيرتان تلتصقان بالعرق. كان الدم يندفع إلى رأسها، وكانت تشعر بالخجل كما لو أنها وجدت نفسها فجأة عارية أمام حشدٍ ساخر. في المنزل الصامت، غير مبالية بشخير السكير، كانت تسمع لحنًا خياليًا يتلاشى تدريجيًا، وتلمس قلبها يدق بخوفٍ خلف أضلاعها.

لكن هذه الليلة، كانت دهشتها من انتصارها على خوفها كبيرة لدرجة أنها لم تستطع الشعور بأي شيء آخر. كانت تسمع صوتها، نقيًا، لا يزال مترددًا بعض الشيء، لكنه هشّ بشكل استثنائي. لم يكن هناك شيء يخبرها أن هذا الصوت الغامض لم يكن سوى تعبيرٍ عن شبابها في تفتحه المفاجئ، وعزاءٍ لكل الإهانات التي تعرضت لها في حياتها، إهاناتٌ دُفنت بعمق لدرجة أنها تقبلتها كما هي، بل وجدت فيها سلامًا خفيًا.

كان صوتها هو سرها، السر الوحيد الذي كان بإمكانها مشاركته مع رفيقها الغريب وهو ممدد عند قدميها، حيًا أو ميتًا—ميتًا على الأرجح. كانت مستعدة لأن تهبه صوتها، بل تهب نفسها، لو لم تكن لا تزال أقرب إلى الطفولة منها إلى الأنوثة. لكن الآن، بعدما قدمت كنزها المتواضع، لم تعد تتعرف عليه. كان غناؤها يعلو في أذنيها بتواضعٍ وحماسة، يغمر جسدها وروحها مثل سائلٍ نقيّ كانت تتمنى أن تغمس فيه يديها.

واستمر غناؤها لفترة بدت لها طويلة—ربما دقيقة امتدت كطول يومٍ كامل. ثم فجأة، صمت ذلك الصوت السحري. نظرت موشيت إلى أسفل ورأت أن يديها كانتا فارغتين.

أرسين نهض ووقف قبالتها. كان وجهه لا يزال مغطى بالوحل، وشفته السفلى، التي جُرحت أثناء سقوطه، تنزف دمًا.

"ماذا بحق الجحيم كنتِ تغنين؟"

حاول أن يضحك، لكن عينيه كانتا تشعان ببريقٍ غريب. كانتا مضطربتين كعيني حيوانٍ مطارد. مسح جبهته بيده، وعندما أبعدها، كانت مغطاة بالوحل والدم.

"إذن، لقد أصبت بنوبة. إنها متعبة للأعصاب بعض الشيء، لكنها ليست خطيرة. كان والدي مصابًا بالصرع أيضًا. هكذا يقولون—لم أكن أعرفه قط".

راح يتأمل الفتاة من خلال عينيه نصف المغلقتين، وكان واضحًا أنه يحاول أن يكوّن معنى من فوضى الصور المتزاحمة في ذهنه. خوفه من أن يفضح نفسه منعه من طرح السؤال الذي، رغم حرصه في صياغته، خرج رغماً عنه.

"اسمعي، يا فتاة... ألا ينبغي أن نرحل؟ لقد تأخر الوقت".

أثناء حديثه، ارتدى سترته الجلدية المبللة، وتأكد من بندقيته، ثم علق حقيبته على ظهره، بينما راح يراقب الفتاة بحذر وهو يتحرك نحو الباب.

"هيا، سأوصلك إلى المنزل. والدك سيتمكن من تدبير بعض الجن لنا".

لم تكن موشيت سعيدة برؤيته واقفًا من جديد. كان الإرهاق والبرد والكحول الذي يحرق جوفها قد أثقلوها بالنعاس. مدت يدها إلى الرجل الغريب. لسنوات، لم تمد يدها لأحد، وكان في إيماءتها كل ما في طبيعتها من بساطة وحماسة.

"إلى أين سنذهب الآن، أرسين؟"

"إلى أين تظنين؟ إلى المنزل"!

"ولكن ماذا عنك... وماذا عن ماثيو؟ وماذا عن الشرطة، أرسين؟"!

كدت تصرخ في الكلمة الأخيرة، مرتعبةً من نظراته الغريبة. اندفع الدم إلى صدرها حتى كاد يخنقها.

"الشرطة؟"

أطرق أرسين برأسه، ثم عاد ببطء إلى داخل الكوخ.

"انتظري لحظة"، قال. "اهدئي. لا أستطيع استجماع أفكاري بعد هذه النوبات. قفي مكانك. ستعود الأمور إلى ذهني بعد قليل".

رمى بقية الحطب على الرماد. كان جافًا لدرجة أنه اشتعل فورًا عندما أشعل لهبًا من ولاعته. جثت موشيت بجانبه.

"أرسين، ماذا عن ماثيو... أنت"...

"اصمتي! اخرسي!" قال. "نعم، تشاجرنا، صحيح. وبعد ذلك... بعد ذلك، احتسينا شرابًا معًا".

ها هي واقفة حتى كادت وجوههما تتلامس، غير واعية بذلك.

"أرسين"، توسّلت إليه، "أما تتذكّر؟ لقد سقط وجهه في الأخدود، قلت ذلك بنفسك، واحمرّ وجهه... لقد قتلته "!تلعثمت بصوت مرتعش.

نظر إليها بعينين زائغتين، كأنما كان يلهث وراء ذكرى ضائعة. ثم تمتم بصوت خافت، كمن يخاطب نفسه:

"ربما... بماذا قتلته؟ هل أطلقت عليه النار؟"

"بالمصيدة، أرسين، لقد رفعتها من نابضها، ثم"...

جلس برهة، رأسه بين يديه، تائهًا في أفكاره.

"صحيح أنني كنت أبحث عن المصيدة... لكن ماتيو... شربنا معًا... ثم... لا أدري ماذا حدث بعدها... كنّا ثملين"...

وفجأة، توقف، كأن خاطرًا مجهولاً قد صعقه، غير قادر على البوح به.

استند إلى الباب، باسطًا ذراعيه كما لو كان يمنعها من العبور، أو هكذا بدا لموشيت. كانت قد بدأت تستشعر الخطر، والتعب ينخر جسدها المرهق، والكحول تتّقد في أحشائها كجمر مستعر.

"دعني أمر، أرسين"، توسّلت إليه.

"إلى أين ستذهبين في هذا الوقت من الليل؟"

"إلى المنزل، أرسين، أقسم لك بذلك"!

راح يحدّق فيها بتمعن، بنظرة صياد يتعقب أثر فريسته في أوراق الخريف الذابلة. لم يكن في نظرته غضب، ولا شفقة، بل شيء أشد غموضًا.

"سأتذكر كل شيء، أرسين، لا تخف! وأنت أيضًا ستتذكر كل شيء غدًا، بعد أن تنام وتستعيد وعيك. وإن سألني أحد قبل أن أراك مجددًا، سأقول"...

"انتظري "!صرخ فجأة، صوته أبحّ ومهدّد" .هل تعلمين ما الذي تقولينه؟ إن تفوّهتِ بكلمة واحدة، سأكسر عنقك"!

كان صوته، الذي صار منخفضًا وخشنًا، رهيبًا على مسامع موشيت، لكنها لم تهرب، بل شعرت أن الهرب لم يعد ممكنًا، وأنها لم تعد تخشى الضرب بقدر خوفها من شيء آخر مجهول.

"أرسين، "همست، "لأقتل نفسي أهون عليّ من أن أؤذيك".

لم يكن هناك حاجة لأن تضيف كلمة أخرى، فقد كان في قسمات وجهها النحيل تصميم عجيب، أبعد ما يكون عن ملامح طفلة خائفة. في الصمت الذي تلا كلماتها، شعرت بأن قلبها يكاد يقفز من صدرها.

"إذًا، "قال أخيرًا، بصوت مثقل، أقرب إلى الهذيان، "لماذا تخافين أن تؤذيني إلى هذا الحد، أيتها الفتاة؟"

حاولت أن ترد، لكنها لم تستطع إلا أن تبتلع ريقها بصعوبة.

"أنت ذكية جدًا بالنسبة لفتاة في مثل عمرك... بل أذكى مما ينبغي".

كانت النار قد خمدت، ولم يتبقَ سوى وهج خافت يتراقص في الظلال، ضائعًا في العتمة. لم يعد أرسين سوى شبح، لكنه كان يبتسم، ولمعت أسنانه البيضاء في الظلام.

"لطالما راودتني أفكار عنكِ "...قال، وهو يضغط لسانه على سقف فمه.

عندها، تأكدت موشيت. لم يعد هناك شك. نبرة صوته، تلك التي كانت قريبة منها حدّ الرعب، ولكنها في ذات الوقت غائمة، معلّقة في الفراغ، أفصحت عن كل شيء. شعرت بقشعريرة، لكنها لم تكن قشعريرة خوف فحسب، بل إحساس غامض، عميق، لا تعرف له اسمًا.

كان صوته مألوفًا لها، سمعته في أماسي الأعياد، حين كان الرجال يثرثرون وسط الدخان المتصاعد من الغلايين، وبخار القهوة الممزوجة بالخمر الرخيصة. كان شباب القرية يتكلمون بنفس الطريقة، عندما كانت تُرسَل لغسل الأواني في منزل مدام أوفري.

كثير من الفتيات، صغيرات السن، كنّ يستمعن دون فهم، ودون أن ينتابهن لا الخوف ولا الاشمئزاز. لكن فيما بعد، عندما يكبرن، يصبح الأمر مختلفًا: إما أن يخافنه، أو يسخرن منه، أو يخجلن حين يسمعنه.

كان هذا الصوت يحمل في طياته كل أوجاع الفقر، كل بؤس حياة التعساء. إنه صوت لا يُثير الفزع، لأنه مألوف، جزء من نسيج الحياة اليومية، مثل البرد في ليالي الشتاء، مثل الإرهاق الذي لا يزول، مثل الرغيف الجاف على الطاولة العتيقة.

ساد بينهما صمت غريب، كالغلالة الخافتة المنبعثة من الموقد. كانت موشيت واقفة، كأن جذورًا خفية تشدها إلى الأرض. ورغم خوفها العميق، لم يخطر ببالها أن تهرب. كان خوفها جسديًا، متجذرًا في أوصالها، إذ لم تكن، في هذه اللحظة الحاسمة، قادرة على استشراف أي مخرج. كان الرجل الواقف أمامها، الذي تكاد تشعر بأنفاسه على وجهها، هو الوحيد الذي لم يكن يمكنها أن تفر منه، حتى لو كان ثمن ذلك حياتها.

تراجعت عنه، ترنّحت، ثم استندت إلى الجدار بتثاقل. وربما كانت كلمة واحدة تكفي لإيقاظ أرسين من غيّه، لكن حنجرتها كانت موصدة بإحكام، عاجزة عن إصدار أي صوت. كانت أسنانها مطبقة بقوة حتى إنها كادت تسمع صريرها في رأسها.

قبض عليها بيدين ازدادتا قوة بهوسه العارم، لكن رغم شدّته لم يستطع أن يثني ظهرها دون أن يحطّمه. فدفعها بعنف إلى الجدار، واهتزّ جسدها النحيل تحت الصدمة، فانحنت وتأوهت للحظة. كان ذلك الصوت الوحيد الذي خرج منها. لم يكن في الظلمة سوى لهاث أرسين، يملأ الفراغ بينهما بصوت ثقيل.

اختبأت في كومة من نبات الجُرْجير البري، تكورت على نفسها، فلم تعد تحتلّ حيزًا أكبر من مساحة أرنب صغير. كان المطر قد أنهك التربة الرملية تحتها، فتفتّتت شيئًا فشيئًا، مما جعلها أكثر اندماجًا مع العتمة المحيطة بها. كان برد الأرض يلامس بشرتها كلمسة باردة تواسيها.

حبست أنفاسها، وأرهفت السمع. لم تكن الكوخ بعيدًا، وكانت تظن أنها تميّز كتلته السوداء بين الأشجار المتناثرة خلف المنخفض الموحل. لكن لم يكن هناك أي أثر لأرسين.

لم يتبعها بعيدًا، ربما تعثّر بجذع شجرة مائلة، فقد سمعت شتائمه الغاضبة. ثم سمعت خطواته المتخفية، وهو يبحث عنها بصبر وحذر. مرّ ذات مرة قريبًا منها، حتى إنها شعرت بمروره دون أن تجرؤ على الالتفات.

وأخيرًا، وبعد صمت طويل، ناداها. في البداية، كان صوته خفيضًا، شبه نادم، يكاد يعتذر، ثم فجأة امتلأ بالغضب. الأسوأ من ذلك أنها لم تكن تعلم إن كان لا يزال في مكانه الذي تخيلته فيه، حيث يمكنه رؤية كلا الطريقين المؤديين إلى المأوى.

لحسن الحظ، كانت الظلمة تملأ الأفق، ولم يكن عليها سوى الانتظار. لا داعي للاستعجال.

كانت تشعر بألم في كل مفاصلها، في كل جزء من جسدها. كانت معروفة في القرية بصلابتها، لكنها لم تواجه ألمًا كهذا من قبل. لم تكن قد تعوّدت أن تتأمل ذاتها، أو تفرّق بين ألم الجسد وألم الروح. لكنها الآن كانت تعاني بصبر غامض، دون إدراك، وكأنها تتألم بجسدها ونفسها معًا، حتى بلغ ألمها ذروته في غثيان مرير.

رفعت رأسها قليلاً، تكتم شهقة جافة خرجت من أعماقها.

أنصتت مجددًا. لا شيء سوى صوت تقاطر الماء من الأشجار، لكن رغم ذلك لم تجرؤ على إدارة ظهرها للكوخ. بدأت تتراجع ببطء، ثم توقفت لآخر مرة.

كان الطريق تحتها مباشرة، لم يكن واضحًا تمامًا، لكنها استطاعت أن تتبع التواءاته من خلال صوت المياه المتدفقة بين أخاديده. انزلقت إلى الأسفل بحذر.

وما إن لامست قدماها الأرض الصلبة، حتى لم تستطع منع نفسها من الركض عبر الغابة. في البداية، حاولت حماية وجهها من سياط الأغصان المبتلة، لكن سرعان ما فقدت الإحساس بها تمامًا. كانت تهرب، تئنّ كحيوان مطارد، يبذل آخر جهد له، ويندفع بقفزة يائسة أخيرة، بعيدًا عن أنياب المطاردة.

لم تتوقف إلا عند أطراف الغابة، وجدت نفسها على الطريق، وبرك الماء تمتد أمامها، تعكس ضوءًا خافتًا، ممتدًا بلا نهاية.

II

رغم حرصها على فتح البوابة الخشبية بصمت، إلا أن صرير مفصلها الوحيد أفشى أمرها، ثم تعثّرت بالدلو الذي كان يحوي نخالةً مسلوقةً للدجاج. كانت أمها خفيفة النوم، وما إن فتحت موشيت الباب حتى جاءها صوتها، مألوفًا لكنه يحمل شيئًا غريبًا لم تألفه.

"أأنتِ؟ أين كنتِ؟"

واصلت الأم حديثها، صوتها يترنّح بين التعب والإهمال: "لقد تأخرتِ... لكنني لا أعرف كم الساعة الآن. شعرتُ بالإرهاق بعد العشاء، فاستلقيتُ. والدكِ والصبيان خرجوا. أشعلي نارًا إن استطعتِ، وسخّني حليب الصغير قليلاً. لم أجد فيّ القوة لأرضعه".

كانت الرماديات في الموقد باردة منذ وقت طويل، ولم يكن في البيت عود ثقاب واحد، إذ اعتاد والدها أن يأخذ العلبة معه حينما يذهب إلى المقهى ليقضي الليل. لا بأس، سيتعينّ على الرضيع أن يكتفي بزجاجة باردة. وكعادتها، وضعتها موشيت داخل ثوبها لبعض الوقت كي تخفف من برودتها بجسدها.

لكن رغم أنها فعلت ذلك مرارًا، فإن ملمس الزجاجة في هذه الليلة، برقبتها العريضة التي بالكاد تناسب الحلمة المطاطية المتوسعة، أرسل في جسدها قشعريرة مريعة. لم تستطع احتمالها، فانحنت تبحث عن أخيها الصغير، الرضيع الشاحب الرخو، على فرشته المهترئة.

لم تكن قد شعرت من قبل تجاهه بشيء سوى الضغينة الصامتة، ذلك الوليد الأخير في سلسلة طويلة من أطفال ولدوا تحت لعنة الخمرة. كان يصرخ طوال الليل، ولا يغفو إلا بعد أن يرهقه ضوء الصباح، فيدير وجهه عنه كأنما يخشاه، وعيناه تحدقان بجمود، جفونه المثقلة ترتعش تحت أهداب حمراء شحيحة.

لم تكن تجرؤ على التعبير عن ضيقها منه، خوفًا من صفعة أو ربما من إحساس دفين بالواجب، فهي تنتمي إلى سلالة من الأمهات المستسلمات، اللواتي كنّ خاضعات للأطفال كما كنّ للرجال. لم تشكك يومًا في حق الرضيع الصارخ في أن يفرض سلطانه على من حوله، لأنه ببساطة لا يملك غير البكاء سلاحًا.

ولكن الآن، بحركة غريزية أشبه بمحاولة النجاة الأخيرة لرجل غارق، رفعت الحزمة النتنة من الأقمطة المشبعة برائحة البول والحليب الحامض، وضغطتها إلى صدرها، ثم أسرعت إلى الجلوس على الكرسي الخشبي في الزاوية، خلف الباب نصف المفتوح المؤدي إلى مخزن الحطب.

تفاجأ الرضيع بهذا العناق المفاجئ، وحدّق بها بعينين غارقتين في مزيج من الخوف واللامبالاة، ثم سرعان ما أمال وجهه المنتفخ إليها، يدفعه بفمه المبلل نحو أي مكان قد يجد فيه دفئًا، يلامس بثغره وجنتها، وعنقها، بل حتى النسيج الخشن لفستانها.

كانت موشيت تنظر إليه، وفي الضوء الخافت المنبعث من الفانوس المثبّت في تجويف الجدار، رأت ظل صدرها النحيل، ورغم هشاشته، فقد كان صدر امرأة. هل ذلك ظل؟ هناك، تحت ثديها الأيسر؟

لامسته أصابع الطفل، وعندها لم تعد تقوى على الاحتمال، وانفجرت في بكاء مكتوم، تتقطع أنفاسها بين شهقات مرهقة. انسابت دموعها على الزجاجة، ثم تساقطت على وجه الرضيع، الذي تقلّصت ملامحه حين شعر بها.

لكن أمها لم تسمع شيئًا، وبعد لحظة صمت قالت:
"ستجدين حفاضًا غسلتُه الليلة الماضية على الحبل. لا تتركيه مبتلاً طوال الليل، وإلا صرخ، وأنا لم أعد أحتمل. هل تسمعينني، موشيت؟"

أنصتت موشيت، تحاول أن تفهم ذلك الشيء المختلف في صوت أمها. كان ثمة شيء غريب، لم يكن يحمل تلك النبرة المرهقة، المتلئة بالاستسلام، تلك النبرة التي اعتادت أن تستخدمها سواء كانت تخاطب البشر أو الأبقار، القطط السارقة أو الأطباق المكسورة أو قطع اللحم الفاسدة.

كان صوتها الآن ألين، يكاد يكون عطوفًا، وكأنه لا يعبرّ عمّا في داخلها حقًا، بل يخفي كلمات أخرى، لم تجرؤ بعد على نطقها.

قبل أن تغيرّ حفاض الرضيع، مسحت وجهها بقطعة القماش التي ستلفه بها، تلك التي رغم غسلها حديثًا، ما زالت تفوح منها رائحة الكحول.

ثم سحبت فرشتها بعيدًا، وتمددت فوقها بكامل ملابسها، ولم تخلع سوى قبقابها الخشبي، الذي كان لا يزال مبتلاً، تفوح منه رائحة العفن، وأثر الغابة العالق بها—التراب الرطب، والإبر الصنوبرية المتراكمة في الظلام.

عادةً ما كانت تنام منكمشة "ككلب صيد"، كما كانت تقول "مدام" بلهجة تفيض بالاستنكار، متذرعةً بمسائل الصحة والنظافة. (كانت تمتلك كتابًا يحوي فصلاً عن النوم، يوصي بالاستلقاء على الظهر، والرأس متجه نحو الشمال والقدمين نحو الجنوب، انسجامًا مع التيارات المغناطيسية).

لكن ما إن عقدت موشيت ذراعيها على صدرها حتى ألقت بهما بعيدًا في حركة مضطربة، كأنما ترفض لمس نفسها. كان وجهها النعس يحمل مسحة خفيفة من الاشمئزاز، وحتى حينما استسلمت للنوم العميق، وظل تنفسها بطيئًا وثقيلاً كعادته، بقيت يداها مشدودتين إلى الفراش، متيبستين، لا تحملان غفرانًا، وترفضان لمس جسدها المكروه.

استيقظت باكية—أو بالأحرى، دموعها هي التي أيقظتها. كانت تنساب على وجهها وعنقها، وقد تخللت قماش بلوزتها. شعرت أولاً بالدهشة أكثر من الفزع، إذ لم تكن قد بكت منذ زمن، وحتى حينما فعلت، كانت دموعها قليلة، تنهمر من فرط الغضب، لكنها كانت تجف فور سقوطها. لم تستطع أن تفهم ما الذي جعلها تبكي أثناء النوم، وداخلها شعور بالاشمئزاز من نفسها لأنها فعلت.

كان الغطاء النحيف قد سقط عن سريرها، والبرد يتغلغل في عظامها، يبعثر أفكارها، حتى نسيت حزنها نفسه. حاولت أن ترفع جسدها قليلاً، لكن الألم الحاد جعلها تصرخ بغضب. توقفت الدموع، وجلست متقوقعة، تحيط ركبتيها بذراعيها، تمامًا كما كانت تفعل حين تحاول حل واجباتها المدرسية. للحظة أخرى، حاولت أن تقاوم النوم...

أولئك الفتيات محظوظات اللواتي تثير فيهن التجربة الأولى إحساسًا بالندم، أو على الأقل انفعالاً قويًا يكفي ليغمر ذلك القلق المبهم وذلك الغثيان القاتم الذي كان يستولي على موشيت. بذلت جهدًا يائسًا لتفكر في مغامرتها البائسة، لكن تفكيرها لم يؤدِّ إلا إلى تسارع الصور الفوضوية التي تتزاحم في ذهنها. كان الأمر أشبه بكابوس طويل، كابوس متكرر، ذلك النوع من الأحلام المرعبة التي كانت تعانيها ليلاً كابنةٍ لرجل مدمن، والتي لم يكن وعيها يستعيدها إلا لاحقًا، عند موعد العشاء، حين تدرك أنها قد حملتها معها طوال اليوم، كحيوان خفي يلتصق بجسدها.

الفرار من المدرسة، انتظارها على قارعة الطريق، التجوال في الغابة تحت سياط الريح والمطر، لقاؤها بأرسين—كل ذلك لم يكن قصة حقيقية، لم يكن له بداية ولا نهاية، كان مجرد ضوضاء مشوشة تتردد في رأسها، أشبه بترنيمة جنائزية. وحين تلاشت الضوضاء، حلّ صمت عميق، مظلم، صمت يبتلع كل حواسها، ثم... ذلك الصوت، صوتٌ بالكاد تدركه، يناديها باسمها. خافت، لكنها شعرت به قبل أن تسمعه، شعرت بتلك المقاطع الصوتية تتردد داخلها... موشيت...

كان أرسين قد نطق باسمها مرة واحدة فقط، لكن... هل كان ذلك اسمها فعلاً؟ في ذلك الصوت كان هناك شيء من شهقة رجل، شيء من الخوف، ومن الغضب، شيء يشبه صرخة حيوان مطارد في وكره.

ومهما كانت قدرتها على تحمل الألم، فقد بلغت الحد. حين كان والدها يضربها، كانت تنحني تحت الضربات دون خجل، وتود لو تموت، غير قادرة على الشعور بالكراهية تجاه معذّبها، بل كانت، بطريقة ما، تشعر بأنها شريكةٌ له في غضبه وكراهيته. كانت تفكر في تلك اللحظات بمرارة، لكنها على الأقل، بعد أن يمر الإذلال، كانت تبدأ في التفكير بالانتقام، وتستعيد كبرياءها، ذلك الكبرياء الذي لم يكن يمكن لأحد أن يسحقه دون أن يسحقها معه.

أما الآن، فقد مات ذلك الكبرياء. انتهى.

لماذا؟

لا بد أن الفجر لا يزال بعيدًا، لكن أصوات الديكة تتناهى إليها من جهة القرية، يتنادون فيما بينهم. قريبًا، سيتعين عليها أن تنهض، أن تواجه الناس، أن تمضي في اليوم الجديد كما لو أن شيئًا لم يكن. لكنها كانت تحمل سرًا، ليس سرها وحدها، بل سر رجل أيضًا، وستجد نفسها قريبًا في مواجهة الشرطة، بيدها حريته، وربما حياته.

لكنها لم تشعر بالرغبة في الانتقام.

عقل أكثر وضوحًا ربما كان سيرى في حدّة طبعها—السبب في توبيخات "مدام" وعداوة رفيقاتها—وعيًا مريرًا، قديمًا ببؤسها، وإحساسًا بأنها محاصرة فيه. قبل بضعة أيام فقط، ربما كانت ستعترف بأن فتاة مثلها لا بد أن تستسلم، عاجلاً أم آجلاً، لما هو محتوم، لرجل يفرض نفسه عليها.

كانت عزلة موشيت الغامضة مع الفتيان تثير ارتباك رفيقاتها، فكنّ يتهمنها بالخداع، ويزعمن أنها أكثر اهتمامًا بمكائدهن مما تبدو عليه. في الحقيقة، لم يكن شيء يفوتها، فقد راقبتهن بفضول مؤلم، كانت أحيانًا تظنه متعة. في تلك اللحظات، لم تكن تدري تمامًا ما الذي يثيره ذلك الفضول في داخلها: لم يكن سوى ذكرى تجربة قديمة تتراقص في ذهنها. وبمجرد أن تنقشع عنها هذه الرؤية البريئة والمبكرة للرذيلة، لم يكن يتبقى سوى إحساس مبهم بعدم الارتياح، أشبه ببقايا حلم تلوّن إحساسها وتؤثر في مزاجها، حتى بعد أن يزول أثره من ذاكرتها.

حدث ذلك في الخريف الماضي. ذات يوم، أمسك بها بورجات، الحداد الذي كان يشتري من والدها جلود القنافذ وابن عرس ليبيعها في تجارته، داخل مستودع مظلم تفوح منه رائحة العطن، فمزّق تنورتها. لم تخبر أحدًا، لكن مساعد بورجات نشر الخبر. واضطر بورجات نفسه إلى تهدئة والدها، الذي، وقد غمره الكحول وحماسه الأبوي، هدد بالذهاب إلى الشرطة.

من ذلك المشهد، خرجت موشيت بمعرفة جديدة: أن القانون يحمي الفتيات في مثل عمرها، وأنها، لبعض الوقت، لا تزال في مأمن من رجال مثل بورجات، الذي كان يومًا مساعدًا للعمدة ولا يزال رفيقًا في الشراب لنائب البرلمان. ربما كانت هذه الحادثة هي التي أيقظت فيها شعورًا قديمًا بالفخر، إحساسًا كان نائمًا بداخلها منذ ولادتها. أي حديث عن العذرية كان سيجعلها تبتسم ببلاهة. لم يكن للطهارة معنى لديها سوى صورة الماء الصافي، أو—بشكل أكثر سذاجة—تلك الفتيات الأنيقات اللواتي يزرن القصور في الصيف، بملابسهن النظيفة، وأصواتهن الناعمة الضاحكة، وأيديهن الطويلة التي تتباطأ على مقابض عربات الخيول. وهكذا، وجدت كبرياءها الجائع، الذي ظل طويلاً بلا مكافأة ولا فرح، غذاءه أخيرًا في هذا الإدراك الوحشي والبريء لنقاء جسدها.

لم تكن لديها أي غرور تجاه جسدها. كان يحمل آثار الضرب، وخدوش الأشواك، اسوداده برد الشتاء، ويُغطّى بثياب سخيفة مقصوصة من ملابس أمها القديمة. كانت غيرتها الحادة لا تمت بصلة لذلك الشعور الذي تغنّى به الرسامون والشعراء عبر القرون، والذي يُفترض أنه غريزة للدفاع عن النفس. لم تكن مثل تلك الفتاة الجميلة، المشغولة بعبادة جسدها قبل أن تستيقظ رغباتها، والتي ترى في الاعتداء عليه إهانة، حتى حين يكون متقن العناية من العطار والخياط.

لم تعرف موشيت مثل هذه المشاعر قط. كانت تندهش من أن فتاة قد ترفض التخلي عن عذريتها، أو أن العذرية لا تُفقد سوى مرة واحدة. لم يكن لفكرة الاستسلام أي أهمية عندها. كانت تدرك جيدًا

أن قيمتها لا يمكن أن تتجاوز قيمة حياتها البائسة القذرة. ومع ذلك، مجرد أن تُطلب منها كان سيكون ذا شأن بالنسبة لها. ولكن، البارحة، صوت عميق داخلها كان قد أخبرها أنها ستخسرها يومًا ما.

بالطبع، لم تكن قادرة على تشكيل هذه الأفكار بوضوح. كان وجه أرسين يطفو في أحلامها، يحدّق فيها من حين إلى آخر، بعينين لا مباليتين، متكبرتين ومحتقرتين. كان الدم يندفع إلى رأسها، ثم فجأة يتراجع، ليتركها باردة القلب، ساكنة الجسد. العنف الذي مُورس ضدها باغتها في قمة حبها المتواضع، ولم تستطع أن تشعر بكراهية حقيقية—كراهية امرأة—للرجل الذي انتهك جسدها.

في عقلها الطفولي، اختلطت ذكرى هذا العنف بذكريات كثيرة أخرى، ولم تستطع تمييزه عن ضربات والدها الوحشية. لكن العار الذي اجتاحها الآن كان من نوع لم تعرفه من قبل، إذ إنها، على الدوام، لم تكن تشعر إلا بالخوف أو الاحتقار تجاه مضطهديها. أما أرسين، فلم تستطع أن تفقد إعجابها به، الآن أو أبدًا.

الطفلة المحكوم عليها بالهلاك في داخلها لم تكن راغبة في أن تموت.

لفترة طويلة، قاومت موشيت حزنها. راقبت ضوء الفجر الباهت وهو يتسلل عبر النوافذ القذرة. فجأة، رغبت في رؤية وجهها، عينيها. شعرت أنها ستستعيد شجاعتها إذا ما أظهر لها ذلك الكسر الوحيد من المرآة التي تملكها أن ملامحها ظلت كما هي، غامضة وعنيدة كما اعتادت.

كم من مرة رأت، بدهشة وحتى برعب، الأكاذيب في وجوه الآخرين، ونظراتهم الوقحة، حتى وهم لا يزالون دافئين من آخر قبلة! كم مرة رأتهن، عندما كانت تنزل إلى قبو المقهى لجلب عصير التفاح، يخرجن من الغرف المظلمة والفارغة التي يتركها صاحب المكان مفتوحة عمدًا في ليالي الأعياد!

لكن بدا لها أن تلك الوجوه لا تشبه وجهها في شيء. لم تكن وجوه أطفال بعد الآن. "وجهها صغير جدًا"، كانت مدام تقول، "يمكنني أن أحمله في راحة يدي". لا أرسين ولا أي شخص آخر كان يأخذ وجهها على محمل الجد. فجأة، رأت أملها على حقيقته. لقد كان أكبر من أن يمنحها أي فرح، ولم يتبقَ منه سوى إحساس غامض، طاغٍ، بانتظار شيء مجهول.

الآن فقط، أدركت أن ذلك الأمل لم يكن سوى تمهيد لإهانة جديدة، إهانة أقسى من كل ما سبقها، رغم أنها لم تكن مختلفة عنها تمامًا. لكنها الآن انغمست فيها بعمق أكبر، حتى استجابت لها أعضاؤها

بمعاناة غامضة انتشرت في أطرافها المتعبة. قد تتلاشى المعاناة، لكنها ستترك أثرًا لا يُمحى. ذلك كان سر موشيت. لن تتمكن أبدًا من البوح به، لأنه كان يتجاوز فهمها وقدرتها على التعبير. سيكون السر الذي يحمله جسدها وحده.

يا ليتها فقط كانت متأكدة من أن أرسين يكرهها! لكنها لم تكن كذلك. لم يكن يكرهها. لم يكن عليها سوى أن تغمض عينيها لتسمع كلماته من جديد: "لطالما أحببتك."...

بدا لها وكأنها تسمعها فعلاً، فقفزت من السرير. وقفت، منحنية، واضعة يدًا على الجدار وأخرى على معدتها. أوه، لو كانت فقط أكبر بسنتين—ربما حتى بسنة واحدة—لما عاملها أرسين بهذه الطريقة، ولكانت استطاعت الدفاع عن نفسها. لكنه كان مخمورًا—هل يعرف الرجل ما يفعله عندما يكون ثملاً؟

في العام الماضي، اعتدى بعض الشبان على العجوز شودي، تلك المرأة المجنونة التي عاشت في كوخ خشبي وأنجبت ستة أطفال من آباء مجهولين، وربتهم في درج خزانة قديمة، على الخبز المنقوع في عصير التفاح الحلو. الشرطة لم تتمكن من القبض عليهم أبدًا، رغم أن أسماؤهم كانت على كل لسان في القرية.

لم تعد تستطيع البكاء. كانت تشعر بخزي شديد من حالها، ومن نفسها، وتكره نفسها أكثر من أي وقت مضى. كانت تعلم أن العار الذي تشعر به لم يكن خطأها. لقد كرهت نفسها لأنها أرادت ما لم يكن لها أن تحصل عليه أبدًا، ولأنها أدركت أن شبابها، الذي كان على وشك أن يبدأ مع مغادرتها لمرحلة الطفولة، قد تدمر إلى الأبد.

أرضية الكوخ المتداعي لم تكن سوى تراب مضغوط، وكان البرد والرطوبة يصعدان عبر ساقيها. الكدمات على صدرها، التي لم تؤلمها منذ مدة، بدأت تنبض بالألم من جديد. كانت تعلم أنها لم تعد قادرة على مواجهة نظرات مدام—نظرات غير مبالية، مزدرية، جاهلة بسرها—وأنه سيكون من الأفضل أن تتحدى الجميع.

لم تكن الكذبة يومًا أمرًا خاطئًا في نظر موشيت، فقد كانت الامتياز الوحيد—وربما الأخير—للبائسين. لكن أي مراوغة الآن ستكون ضربة قاسية لكبريائها. كانت تفضل تحمل أي شيء على أن تعيش الأيام الفارغة التي تنتظرها.

ففي عقلها، الذي لا يزال عقل طفلة، كان قتل حارس الغابة واغتصاب فتاة في الرابعة عشرة جريمتين متساويتين في نظر القانون. لم يكن بوسعها فعل شيء من أجل الرجل الذي أحبته. على أي حال، لم تتوقع أبدًا أن ينتظر الشرطة، فالرجل مثله لن يُقبض عليه أبدًا. حتى الآن، فكرت، لا بد أنه بعيد جدًا.

إلا إذا كان مختبئًا في مكان آمن، يخطط لخطوته التالية—فمن السهل جدًا الإفلات من القانون. بكل كيانها، تمنّت أن يكون ماثيو قد مات.

"ماذا تفعلين مستيقظة في مثل هذا الوقت؟ "سألتها أمها.

في البداية، لم تُجب موشيت. كانت كأنها محاصرة خلف جدارٍ من الظلام. لم يكن بإمكان أمها سوى سماع صوتها، ومع ذلك، كان سمعها ضعيفًا عادةً.

"أنا مريضة حقًا"، ترددت الكلمات في الغرفة الخافتة" .أشعلي شمعة من الدرج، قد تجدين علبة كبريت في سروال والدك القديم، إنه يرتدي الجديد الآن".

تراقص وهج الشمعة الخافت على ملامح المرأة البائسة، لكنها بالكاد كانت تُرى. لم تهتم موشيت بملامح أمها، فقد اعتاد الجميع على مرضها، عداها هي نفسها. كان زوجها والصبية ينهضون في الصباح ليجدوها جالسةً على كرسيها الخشبي، تكتفي برداءٍ خفيفٍ رغم البرد، تهدهد ألمها ذهابًا وإيابًا بصمتٍ كسير. لم يعودوا يسألونها، فما جدوى السؤال إن لم يحمل الجواب إلا صدى الشكوى؟ كانوا فقط يرمقونها بنظراتهم العابرة، ثم يلعنون حظهم وهم يقتلعون الحطب لإشعال النار وإعداد القهوة بأنفسهم. كانت المرأة المسكينة تشعر بالخجل من صمتهم، فتُطلق بين شفتيها أنينًا خافتًا، كأنها تعتذر.

أحيانًا، بصوتٍ مثقلٍ بالتعب، كانت تقول" :إنه ألمي، لا بد لي من استدعاء الطبيب"، لكنها لم تكن تتلقى سوى تأوهٍ غيرٍ مفهوم.

الفقراء لا يهتمون بالمرض، فهو عبءٌ آخر يضاف إلى أعبائهم، لا فرار منه كما لا فرار من الفقر ذاته. ثم إنهم يعرفون من التجربة أن الأطباء لا يملكون علاجًا حقيقيًا، بل مجرد كلماتٍ كثيرة تُباع بثمنٍ باهظ.

موشيت لم يجذبها وجه أمها المُنهك، لكن شيءًا غامضًا في نبرتها لامس قلبها، رقةٌ غير مفهومة، دعاءٌ مستترٌ في كلماتٍ عادية، مما جعل يدها التي تحمل الشمعة ترتجف.

"احذري من الشمع "!قالت أمها، لكن دون قسوة" .الصقي الشمعة بالجدار، فمن الجميل أن يراها المرء حين يكون في ألم".

حاولت أن تعتدل في جلستها، لكنها ازداد شحوبًا، حتى كادت تصير ظلاً باهتًا في العتمة. ظلت صامتةً طويلاً، لكن موشيت شعرت أنها تخشى الصمت كما تخشى الظلام ذاته.

"اقتربي"، قالت وهي تمد ذراعها الهزيلة العارية" .الألم يمتد حتى صدري، أشعر كأن حجرًا ثقيلاً يستقر هناك... ماذا أفعل؟"

قالتها وكأنها تبحث عن إجابة، وكأنها تنتظر من موشيت حكمةً لم تكن تملكها. لم تعرف الفتاة ماذا تقول، فحركت قدميها بارتباك.

"حاولي إشعال بعض النار، عندما أصيب أخوك بمغصٍ حاد، لم يسكته سوى كمادة دافئة. اصنعي لي واحدة، أحتاج قليلاً من الدفء. ولكن لا تدعي غوستافٍ يستيقظ، إن بدأ بالبكاء، لن يتوقف".

تحركت موشيت إلى الجهة الأخرى من الغرفة، عادت بعد قليل، تحمل في يدها علبة صفيح فارغة...

"لم يعد هناك نشا، ماما".

تبادلت الاثنتان نظرات صامتة لبرهة، ثم أشاحت الأم وجهها، محاولة أن تثبت صوتها الذي كاد يتهدج.

"استعملي الدقيق إذن، فالأمر سيّان".

لقد اشترتا مؤونة الأسبوع يوم أمس من الرجل الذي يجوب الأحياء كل سبت.

"لكن لا تضيّعيه، خذي ما تحتاجين فقط. ضمادة بحجم كفّي، لا أكبر... آه، آه، أسرعي يا موشيت"...

أطلقت أنفاسًا متقطعة، ثم استسلمت للصمت. كان القدر عتيقًا، وكان على موشيت أن تحرص ألاّ يلتصق الدقيق بجدرانه. حرّكته ببطء وحذر، لكن الرائحة أثارت بداخلها وعيًا مفاجئًا بجوعها

الكاسر. وبينما كانت تفرد العجين على قطعة قماش لصنع الضمادة، لم تستطع مقاومة لعق أصابعها.

كانت أمها قد كشفت عن صدرها ومدّت ذراعها. وخلال الدقائق الأخيرة، كان وجهها قد تغيرّ بشكل مخيف. بدا الجلد مشدودًا فوق عظامها، ومع كل اهتزاز في ضوء الشمعة المتراقص، صار وجهها أشبه بقناع شمعي. أنفها بدا أطول على نحو غريب، وفتحتا منخريها الضيقتان أضفتا عليه هيئة مدببة حادة.

وعندما لامست الضمادة الحارقة جلدها، أطلقت أنّةً خافتة، بينما كانت موشيت قد أدارت وجهها بعيدًا.

"ابقي معي قليلاً، "قالت بصوت منكسر" .لا أظن أن الحرارة ستؤذيني، أشعر أنني أتنفس بشكل أفضل. دودو، لن أتمكن من إطفاء الشمعة دونك لاحقًا".

دودو !لم تذكر موشيت أن أمها نادتها بهذا الاسم أكثر من بضع مرات في حياتها. كان لقب جدها المفضل. ذلك الجدّ الذي كان عامل منجمٍ من "لان"، فضيحةً في الحيّ، إذ عرف الجميع أنه قضى خمس سنوات في "غويانا" عقابًا على جريمة ارتكبها في شبابه.

كان يروي حكايات عن كيف كان يكسب رزقه في المهرجانات كمصارع، رغم أن جسده الذي كان يعرضه عند مدخل الخيمة كان نحيلاً، إلا أنه كان مزينًا بوشوم رائعة بثلاثة ألوان. ثم كان يسرد حكايات أقدم، عن اليوم الذي عاد فيه إلى والدته المرعوبة، شبحًا لرجلٍ بالكاد يُعرف، مرتديًا قميص جنديّ وسروالاً وحذاءً، حاملاً كلّ ممتلكاته في صرّة بيضاء تحمل اسم مطعم محطة "ديجون" بحروف حمراء.

لم يمكث أكثر من ستة أشهر في بيت ابنته، إذ مات بسبب السلّ الذي تفاقم مع الربو والتهاب الرئة. كان تنفسه قد تحول إلى حشرجة متقطعة، منفرة لكل من حوله، عدا موشيت، التي كانت في الخامسة من عمرها. لطالما شجعها على الاقتراب وسماع أنفاسه اللاهثة. كانت الوحيدة في البيت التي لم يلعنها طوال اليوم، مطلقًا سيلاً من الشتائم من بين أسنانه المتآكلة بالسواد، بلغة هجينة من لهجات السجون وألفاظ الباعة الجوالين.

في إحدى الليالي، وقد تملّكته الحمى، لم تفلح أي وسيلة في منعه من تجربة علاجٍ قال إنه تعلمه من همج أمريكا الجنوبية. جرد نفسه من كل ملابسه، واضطجع عاريًا فوق قش الإسطبل في مزرعة الجيران. وفي الصباح، وجدوه جثة هامدة.

لم تكن موشيت تعتقد أنها أحبته، لكنها لم تخفه أبدًا. حتى عندما مدّدوه ميتًا على السرير الوحيد في البيت، ذلك الإرث الفلمنكي العتيق، لم يكن يبدو لها مهيبًا، بل كاريكاتوريًا ساخرًا. وجهه العجوز الماكر، الذي لم يُخلق للسكينة الأبدية، بدا كأنه يسخر من الموت ذاته. كان بمقدورها أن تتخيله وهو يرسم إحدى تلك التكشيرات المرعبة التي كان يتقنها، بل إنها رأته في اليوم السابق متلبسًا وهو يتدرب عليها أمام القطعة الصغيرة من المرآة المعلقة على الحائط. حتى من تحت قميصه المهترئ، كانت وشومه تلوح، ومن بينها وجه امرأة ذات عينين طويلتين مسحوبتين، وفم أحمر شبه دائري، مرسومٍ على شكل قلب.

"مسكينتي، دودو"!

اهتزّ جسدها المنهك مع هذه الكلمات التي لم تعتد سماعها. ومض في عينيها بريق ارتياب قاسٍ، إذ لم تعرف منذ زمن طويل كلماتٍ كهذه، كلمات تنطوي على ثقة أو حب. ولو أنها فقط سمحت لنفسها بأن تميل نحو الفراش، لما استطاع شيء أن يمنعها من الارتماء على كتف أمها، كما فعلت قبل قليل عندما خطفت الرضيع بين ذراعيها.

"ليتني أعلم كم الساعة الآن "...استرسلت الأم بصوتٍ خافت متعب" .حين تهب الريح من ذلك الاتجاه، من ناحية البحر، لا يمكن سماع جرس الكنيسة".

"لا بد أنها تقارب الخامسة، "أجابت موشيت" .لكن يبدو أن الريح قد تغيرت، بسبب الإعصار".

"إعصار؟ ماذا تقصدين، أي إعصار؟"

"كان هناك إعصار الليلة الماضية".

"الليلة الماضية؟ لقد كانت مجرد ريحٍ قوية قادمة من البحر. جارتنا غسلت ثيابها ولم تُدخل ملاءاتها حتى"!

موشيت كانت مذهولة لدرجة أنها كادت أن تُسقط الشمعة التي كانت تحاول تثبيتها في عنق زجاجة النبيذ. لم تجادل والدتها، إذ لم يخطر ببالها أبدًا أنها قد لا تقول الحقيقة. كل ما جرى في الليلة الماضية بدا خادعًا ومخاتلاً، وكأن ذاكرتها قد خانتها. لم تتذكر من الإعصار إلا ما رواه لها أرسين: البخار المتصاعد حول مبنى الجمارك ("ليس دخانًا، بل بخار")، وسقف المخزن الذي انخلع بفعل العاصفة—كل ذلك كان محفورًا في ذاكرتها بوضوح أشد من وهج الشمعة التي أمامها، وكأنها رأتها بعين أرسين نفسه.

فجأة، لم يعد لديها شك في أن أرسين قد نسي كل شيء—الإعصار، بل حتى نسيها هي. أدركت أنها لم تكن ضحية رجل، بل ضحية حلم عابر. غير أن هناك أمرًا واحدًا كان يثقل صدرها أكثر من أي شيء آخر: لا بد أن تشارك سرها مع أحد، مهما كان الثمن.

"اسمعي، ماما "...بدأت كلامها، وانحنت فوق أمها حتى شعرت بخصلة من شعرها تلامس خدها. لكن قبل أن تنطق بالمزيد، بدأ غوستاف يصرخ صرخة حادة متواصلة، تكاد تمزق السكون. لم يكن في صوته أثر للألم أو السعادة، بل كان صراخًا ميكانيكيًا، ومع ذلك كان صادمًا كيف لطفل ضئيل مثله أن يحافظ على صرخة طويلة كهذه. استيقظ من وهج الضوء، وجلس القرفصاء على الفراش، لكن الغطاء سقط عنه فكشف جسده الصغير للريح الباردة المتسللة من تحت الباب.

"اجعليه يسكت "!كان صوت الأم مبحوحًا، وعيناها متسعتين بفزع" .لا أستطيع تحمله! لا أستطيع"!

التقطت موشيت الطفل الملفوف في خرقة مبللة، وحاولت تهدئته بنغمة خافتة تشبه التهويدة، لكن صوتها سرعان ما تحول إلى نحيب آخر، بلا لحن ولا رجاء.

تأوهت الأم من جديد، ثم همست بصوت مختنق" :يا إلهي... أنا أموت... لا أستطيع التنفس... افتحي النافذة! افتحيها، بحق الله"!

اندفعت موشيت نحو الفراش، لا تزال تحتضن الرضيع المتشنج بين ذراعيها. كان وجه أمها مرعبًا؛ شفاهها مزرقة، فمها مفتوح في لهاث يائس نحو الباب، وكأنها تحاول أن تلتقط أنفاسها الأخيرة.

لم تضع موشيت غوستاف أرضًا، بل مدت يدها ودفعت الباب بقوة حتى ارتطم بالحائط، فانبعثت ريح البحر الشمالية بقوة، تحمل معها همسًا غريبًا، يشبه حفيف الأشجار اليابسة.

"اجعليه يسكت! اجعليه يسكت"!

لفّت موشيت جسد غوستاف الصغير ببطانيته الصوفية الوحيدة—والتي كانت مبللة بالطبع—لكن دون جدوى. لم يكن صوته يخفت، ولم يكن يعلو، بل ظل يخترق أذنيها مثل إبرة لا تكلّ. حتى الكلب العجوز، بالود، لم يتحرك ولم ينبس بصوت، وكأن نحيب الطفل لم يصل إليه. شعرت موشيت بالعجز، جربت كل شيء—هزته برفق، احتضنته بقوة، رفعته فوق رأسها—لكن لا شيء أفلح.

"أعطني إياه "...تمتمت الأم، ثم سرعان ما أرجعته إليها بتنهيدة يائسة، لم تستطع حتى حمله بين ذراعيها.

كان وجهها، مثل وجوه كل النساء الفقيرات، يحمل سمة الاستسلام المتعب أكثر مما يحمل أثر الألم. لاحظت موشيت أن شفتيها بدتا متورمتين، لكن عند التدقيق، أدركت أن لسانها هو ما كان منتفخًا، ومائلاً إلى اللون الأزرق.

"ضعيه في الفراش"، همست الأم" .أحيانًا، إن تركته يركل الهواء حتى ينهكه التعب، ينام وحده... يا إلهي! أحضري لي الزجاجة... وضعتها فوق القبو، خلف الصندوق. لا أريد أن أموت وأنا أتلوى من الألم"!

كانت موشيت متوترة لدرجة أنها لم تعد قادرة على التفكير، بل أطاعت بلا وعي. لم تكن تدرك ذلك، لكنها كانت ترى في أمها الحاملة لكل أعباء فقرهم. كانت ثرثرتها التي كانت تثير استياءهم أحيانًا، وانفعالاتها المفاجئة التي كانت تخيف حتى زوجها السكير، تجسدًا لصوتهم جميعًا، لصمتهم، لسهرهم الطويل الذي لا ينتهي، لأحزانهم القاسية وفرحهم القليل المتواضع. كانت، بطريقة ما، ثورتهم الصامتة. كانت مقدمة السفينة التي وُضعوا عليها جميعًا، تتلقى الصفعات الأولى من الريح، وتغتسل في كل عاصفة برذاذ البحر وقسوته.

تنهدت الأم بعمق وهي تأخذ الزجاجة. كان الطفل لا يزال يصرخ، وقد بدأ الكلب بالعواء، صوته يتصاعد شيئًا فشيئًا حتى بلغ نغمة حادة، مزعجة، لا تُحتمل.

حين عادت موشيت، كانت الأم تمسك برقبة الزجاجة وتتنفس بصعوبة، في ارتباك واضح. تسرب السائل من جانبي فمها أولاً، ثم انسكب على عنقها وثوبها الرثّ. لم تدرك موشيت إلا حينها أنها فقدت وعيها.

لكن بعد لحظات، انفتحت عيناها من جديد، ببطء، وكأنها تنظر إلى عالم غريب عليها. بالكاد بدت قادرة على تركيز نظرها، بالكاد تعرفت على الأشياء حولها. أخيرًا، انتزعت ابتسامة صغيرة، محرجة، أعادت بعض الحياة إلى وجنتيها الباهتتين.

تحسست الغطاء المبلل بأنامل ضعيفة، ثم قالت بصوت خافت" :لقد أفسدت كل شيء... لا أريد أن يرى والدك أنني سكبت الجين على السرير، لكنه سيكون مخمورًا لدرجة أنه لن يلاحظ شيئًا على الأرجح... لا يهم، في النهاية... أشعر بتحسن، دودو".

توقفت لحظة، ثم أغمضت عينيها. شعرت موشيت أن عليها أن تغلق الباب، إذ كانت ساقاها ترتجفان من البرد. هرعت نحو الفراش الآخر ولفّت غوستاف بإحكام، تاركة إياه يصرخ غضبه في وسادته. أما الكلب، فقد بدأ في العواء المتواصل.

بدا أن أمها قد هدأت الآن، لكن الجين كان قد تسرب إلى إحدى عينيها، فبدأ جفنها المرتعش يحترق ويلتمع تحت الضوء.

"ضعي رأسك على صدري"...، همست فجأة".اسمعي... لا أسمع دقات قلبي"...

ثم، بصوت بالكاد يُسمع، قالت:

"أنا راحلة... ساقاي صارتا بلا إحساس... لم أكن أشرب يومًا، والله يعلم ذلك... لكن لا مفر".

الكلمة "موت" ضربت موشيت كما لو أنها تلقتها جسديًا، لكنها لم تجد وقتًا للتفكير، إذ كان بكاء غوستاف قد تحوّل إلى اختناق يائس متقطع. هرعت إلى الفراش مرة أخرى، كان فمه مليئًا بالقش، فانتزعته بأقصى ما استطاعت.

"يا إلهي، كم هو صوته مرعب!" كان تنهد الأم مخيفًا، فتحت عينًا واحدة وألقت نظرة أخيرة على الرضيع، ثم أشاحت بوجهها عنه.

"أعطني الزجاجة مرة أخرى، دودو! ولمَ لا؟ لقد حرمتُ نفسي طوال حياتي، فلأحظَ ببعض المتعة وأنا أُحتضر. ليس الموت ما يقلقني، بل الحياة نفسها. لطالما عشت وفق أوامر غيري—"اشكي أو لا تشكي، لكن افعل ما يُملى عليك وإلا ستنال عقابك"—هكذا هو قدرنا دائمًا. حسنًا، من الآن فصاعدًا، سأفعل ما أشاء".

مرّرت يدها المرتجفة على الزجاجة كأنها تتحسس ملامحها بعينين عميتين. كانت يدها شاحبة حتى بدت أخاديدها وتجاويفها كحروف محفورة بحبر أسود على ورق أبيض.

"وماذا لو لم أمت الليلة؟ تذكري ما سأقوله لكِ يا موشيت. اذهبي وأحضري الطبيب. لقد كنت أتوق لرؤيته منذ أيام، أريد أن أتحدث إليه، لا أعرف لماذا. لا ألومك، لكنكم جميعًا لم تجلبوا لي سوى الألم. هناك شيء يُقال عن الناس الطيبين—إنهم ليسوا مثلنا. ستذهبين إليه، أليس كذلك يا موشيت؟ قولي له أن يأتي في المساء، بسبب والدك، فهو لن يكون لطيفًا معه. ستخبرينه، أليس كذلك، موشيت؟"

"نعم، ماما، سأذهب".

"وأنتِ... لا تنخدعي بالكسالى والسُّكارى. الفتاة قد تقع في غرامهم. لكن، أنظري... هناك السيد أرسين أيضًا. أنتِ صغيرة، لا تفهمين بعد، لكنه ليس الرجل الذي ينبغي لوالدك أن يعرفه".

مدّت يدها نحو الزجاجة كالعمياء، هامسة: "مجرد رشفة واحدة، رشفة واحدة فقط، يا دودو المسكينة. أشعر أنني فارغة، كأنني لا أزن أكثر من وسادة من ريش الطيور".

ببطء، وبحذرٍ خجول، وضعت يدها الخشنة على رأس ابنتها، كأنما تعتذر لها عن هذه اللحظة النادرة من الحنان، والتي لا بد أنها بدت غريبة على الفتاة التي لم تسمع منها يومًا كلمة شفقة. للحظة، قاوم رأس موشيت الصغير هذا الحنو، ثم استسلم أخيرًا، وغرق ببطء على صدر الأم، كأنما نفد منه كلّ ما تبقى من قوّة، وهمست بأنينٍ متعب:

"ماما... يجب أن أخبركِ بشيء"...

لكن الأم كانت قد رحلت، ولم تسمع شيئًا.

حين عادوا عند الفجر، كانوا ثملين. كان زيفيران، الأخ الأصغر، أول من لاحظ الشمعة التي تركتها موشيت تحترق بجوار جسد الأم الميتة، فخلع قبعته بلا وعي. كانت الجارة، مدام دوماي، جالسة على المقعد، تطحن القهوة، والماء يغلي في الغلاية.

على فراشها، كانت موشيت ممددة، منهكة تمامًا، بجانب الرضيع الذي استنزفه البكاء.

شربوا القهوة بصمت، ثم خرج زيفيران إلى القرية ليبلغ السلطات. أما والدها، فخلع سترته، وعلى الرغم من البرد، جلس يدخن غليونه عند حافة الحوض، كما كان يفعل كل أحد صباحًا. كانت عيناه الصغيرتان، الرماديتان المتسختان، ترمشان بلا توقف.

"إلى أين أنتِ ذاهبة، أيتها الفتاة؟"

"لإحضار الحليب لغوستاف".

أشار إليها بغليونه الطيني، واحمرّت وجنتاه. كان وجهه لا يزال ضائعًا بين سكر الليلة الماضية وجمود الصباح، لكن فمه، الذي لم يتبق فيه سوى بقايا أسنان سوداء، ارتسم عليه شبه ابتسامة مترددة.

نظرت إليه موشيت بصمت تام، بوجه نحيل متجمد الملامح.

"لقد كانت امرأة شجاعة" تمتم، لكن صوت رئتيه المتعفنتين بالكحول جعل كلماته بالكاد مفهومة.

حدّقت به موشيت دون أي انفعال. كأن أحداث الليلة الماضية أحاطت بها كضباب كثيف، يشوّه الأشياء والأشخاص. لم يكن في نظرتها أي حقد، لكنها بدت وكأنها لم تعد تعرف هذا الوجه، كأنها تراه للمرة الأولى. للحظة قصيرة، انمحت عنه تلك القسوة المعتادة، وبدا مشوشًا، قلقًا، بل طفوليًا.

فجأة، حين واجه هذه النظرة الصامتة من طفلته التي لطالما أهملها، ازداد ارتباكه. عصفت الريح بشعره الأشعث المحمّر، فزمجر بغضب:

"إلى متى ستحدقين بي هكذا؟ ألا تعرفين أدبًا؟"

تراجعت موشيت خطوة إلى الوراء، بدافع العادة أكثر من الخوف. لم تحاول أن ترد. كانت الثورة التي بدأت تتشكل في داخلها أقرب إلى وحش أعمى، بلا صوت. وربما لم تكن ثورة على الإطلاق، بل كانت لحظة مفاجئة، طاغية، شعرت فيها بأنها تدير ظهرها للماضي، وتخطو نحو قدرها المجهول.

لم تستطع أن تخرج الكلمات من فمها، وكل ما تمكنت من قوله كان شتيمة، لفظتها ببطء، بصوت متهدج يملؤه الحزن، حزنٌ عميق إلى حد أن والدها لم يفهمها في بادئ الأمر.

قبل أن تنطقها، كانت قد دفعت بوابة الخشب وراءها، وصوت قباقيبها يقرع الطريق.

كانت الشتيمة أقبح كلمة تعرفها، لكنها لم تكن تعني لها شيئًا، لم تكن سوى انعكاس بائس ليأسها العميق، صدى للهوة السحيقة التي فتحتها الليلة الماضية داخل روحها.

قالت:

"تبًا".

ومع ذلك، ما إن نطقت بها حتى أسرعت في خطاها نحو قمة المنحدر، حيث كان بالإمكان رؤية أول بيت من بيوت القرية. ومع ذلك، فإن فكرة الفرار من الضربات، التي لطالما بدت غريزية، أضحت الآن أمرًا لا يُحتمل. لم يكن في حريتها المكتشفة حديثًا أي شعور بالفرح، فقد أدركت أنها جاءت متأخرة، وأنها لن تنقذها. لكن لا شيء، لا شيء على الإطلاق، كان يمكنه أن ينتزعها منها، وستكافح لحمايتها.

بمثل هذه الأفكار كانت تتأمل ثيابها، ثم تهز كتفيها بلا مبالاة. أي ثياب تلك؟ لقد نسيت سترتها، ولم تكن ترتدي سوى قميصها وتنورتها البائسة المليئة بالثقوب. أما الجزء الجلدي من قباقيبها فقد تحول إلى لون الصدأ، وجفّ بطريقة جعلته ينحني بشكل كاريكاتوري مضحك. كان الرماد الذي نثرته على رأسها يطحن بين أسنانها، لكنها لم تعبأ بقذارتها. ولو لم يكن هناك شيء يشدها إلى مهمتها، لخاضت في الوحل كما تفعل الحيوانات، متمددة على بطنها في الطين البارد. كان الألم في معدتها عنيفًا إلى حد أنها كانت تمشي منحنية، أشبه بكائن هش يتخبط بين الجوع واليأس.

خرجت من المنزل بلا فكرة واضحة عمّا تنوي فعله. لا تزال آثار الشراب الذي أعطاها إياه أرسين مستقرة داخلها، في الموضع ذاته حيث يتكاثف الألم. أرسين... كم أصبح بعيدًا الآن! كأنها تراه يمضي، بخطواته المتلوّية الرشيقة، عبر طريق مجهول، ربما يغني، فهو لم يكن يتوقف عن الغناء أبدًا. كانت متأكدة أنه، بحلول الليل التالي، سيكون قد عبر الحدود، وكانت الحدود بالنسبة لها خطًا غامضًا لا تجرؤ الشرطة، ولا حتى رجال الجمارك، على تجاوزه...

حدود بلجيكا... وراءها كانت ترى، ممزوجة بذكريات طفولتها البعيدة، أرضًا منبسطة لا يحدّها سوى السماء، عامرة بمواش ضخمة، أبقار فلمنكية هائلة الطول، أجسادها تمتد كأن خلفياتها عبء غريب مكتوب عليها أن تجرَّه خلفها إلى الأبد، وأرضًا تكتسحها الرياح ليلاً ونهارًا، فتدور أشرعة الطواحين دون توقف... بلاد حرة.

لكنها لن تراها أبدًا. لقد أنهكها التعب. والغضب الذي لم يعد قادرًا على ملاحقة أرسين، ارتدّ على القرية البائسة. لم يكن شيء يثير سخطها أكثر من ذكرى تلك المرأة، مدام. كم تمنت أن تصفعها بالحقيقة، أو بحقيقة مشوهة، مختلقة بعناية لتربكها وتصيبها بالذهول. كانت تتخيل نفسها تفاجئهم جميعًا أثناء درس الأخلاق يوم الثلاثاء، بينما تقف مدام تشجب "الجريمة النكراء المرتكبة ضد حارس القانون الأمين أثناء تأدية واجبه". لكنها كانت تعرف أنهم لن يفعلوا سوى الضحك. لن يصدقها أحد. أو ربما... لا، فكل ما يمكنها قوله الآن لن يكون سوى خيانة لمن هرب. أما هي، فقد خرجت من اللعبة. لماذا تقاوم القدر؟ كل ما عليها الآن هو أن تحتقره.

لقد كانت، في النهاية، مجرد طفلة ضلّت طريقها إلى صراع مميت بين رجال بالغين. فالجريمة، كالحب، لا يمكنها أن تحتمل مثل هذا العبء الهزيل. ومع ذلك، فهي وحدها التي عرفت السرّ الذي ربما كانت كل قوى القانون تلاحقه الآن عبر الطرقات.

كانت هذه الفكرة الوحيدة التي أبقتها واقفة وسط يأسها. لم تكن واضحة في عقلها، فالفخر الذي ألهمها بها كان مشوبًا بالخوف، لكنها، وللمرة الأولى، وجدت في تمردها الغامض، ذاك الذي كان التعبير الحقيقي عن جوهرها، معنى يمكنها أن تدركه.

لقد أصبحت وحدها الآن، وحيدة تمامًا، في مواجهة الجميع.

III

مدام ديرين، الأرملة التي كانت تدير متجر البقالة، أشارت إليها من عتبة الباب. لطالما كان موقفها من موشيت مزيجًا من الازدراء والعداء الحذر، ممزوجًا بخوف خافت من انتقام محتمل، فقد شاع بين أهل القرية أن الفتاة الصغيرة قادرة على ارتكاب الجريمة التي لا تُغتفر في هذه الأنحاء: الانتقام عبر إيذاء المواشي. غير أن خبر وفاة والدتها المفاجئة انتشر كالنار في الهشيم، ما أثار فضول الجميع وأيقظ شيئًا من التعاطف الذي لم يكن مألوفًا تجاهها.

"إذن، فقد رحلت أمك المسكينة... بهذه السرعة أيضاً...
يقولون إنك لم تجدي حتى الوقت لاستدعاء الجارة، وإنها وصلت بعد فوات الأوان. تعالي، خذي رشفة من القهوة".

توقفت موشيت عند أسفل الدرج الصغير، غير قادرة على رفع نظرها. تبادلت مدام ديرين نظرة ذات مغزى مع زبونة كانت لا تزال واقفة عند العداد.

"قلت لك تعالي. لا فائدة من الاستسلام للحزن. هذا طريق لا بد أن يمر به الجميع عاجلاً أم آجلاً. على الأقل، رحلت بسلام... جلطة، على الأرجح... الصحف لا تكف عن ذكرها".

كان واضحًا أن هيئة موشيت ألقت بظلال من الدهشة وحتى شيء من التقدير في نفس مدام ديرين. من كان ليظن أن تلك المتوحشة الصغيرة قادرة على الحزن العميق؟ ولم يكن أحد ليصف والدتها بالصبر أو الطيبة.

لم تأبه موشيت بالفضول الذي أحاط بها؛ رائحة القهوة الساخنة خنقت كل إحساس وكل فكر بداخلها، ولم تجد سوى الدموع طريقًا لعينيها.

دفعت مدام ديرين سلة الكرواسان نحوها.
كان عمرها يومين، فالمخبز لا يسلّم الخبز إلا أيام الأحد بعد القداس، لكن هذا لم يكن مهمًا. امتدت يد موشيت المرتجفة لتغمس هذه الندرة في الوعاء المتصاعد البخار. كان ذلك أكثر مما تستطيع

احتماله. انحنت فوق القهوة العطرة كقطة صغيرة تنحني فوق وعاء من القشدة، وراحت تأكل وتبكي في آن واحد.

انزلقت قطعة كرواسان رابعة بين أصابعها المرتجفة، وضعتها في جيبها بحركة آلية. استندت بكوعيها إلى الطاولة، بدت غارقة في التفكير، غير أن عقلها كان فارغًا تمامًا، حتى إن خشب المنضدة الباهت بدا لها كأنه شيء صالح للأكل.

الهمس الخافت بين مدام ديرين وزبونتها تلاشى في ذهنها، كأنه هدير بعيد يغمر نومها. ثم خيّم الصمت، فانقطع حلمها المبهم. فجأة، رمقت المرأتين بنظرتها القديمة، تلك النظرة الماكرة المريبة، فاضطرتا إلى تحويل بصرهما عنها.

كان ياقة بلوزتها مفتوحًا، والكدمات التي غطّت صدرها الفتي ظاهرة بوضوح. لم تكن قد تحولت إلى اللون الأرجواني بعد، بل ظلّت بقعًا داكنة حمراء، تتخللها خدوش بلون أفتح، بدت كأنها وشم صارخ على بشرتها السمراء.

كان معروفًا أن يد والدها كانت طليقة في الضرب، لكن هذه العلامات حملت دلالة أعمق، أكثر رعبًا، نقشًا مأساويًا على جسد طفولة منتهكة. لم تحتج المرأتان سوى نظرة واحدة لقراءة القصة كاملة—القصة التي لم تُحكَ، لكنها كُتبت على جسدها بوحشية الزمن والأسى.

ما إن تحسست موشيت ياقة بلوزتها لتغلقها، حتى فشلت في ذلك. كان القماش قد تعرض لسوء المعاملة أكثر من بشرتها، فأصابعها المرتعشة لم تفعل سوى أن زادت التمزق اتساعًا. بلا شك، كانت المرأتان متردّدتين. ربما كانت ابتسامة أو كلمة كافية لتهدئتهما، لكن موشيت لم تكن قادرة على أي منهما.

قفزت فجأة مثل حيوان مذعور، فاصطدمت الطاولة بكرسيها، وسقط الوعاء نصف المتلئ على الأرض الحجرية وتحطم.

"ما الذي تظنين نفسك فاعلة، تحطمين وعائي؟"
همست مدام ديرين بصوت حاد" .أيتها المتوحشة الصغيرة"!

تغير وجه موشيت بفعل الخزي والغضب، وفضحتها ملامحها أكثر من أي اعتراف. تراجعت نحو الباب بخطوات مرتبكة.

"أيتها الفاسقة الصغيرة "!قالت مدام ديرين بحدة" .وكنت أشفق عليها! لا عجب أنهم يقولون إن القطة البرية لا يُمكن تدليلها"!

لكن موشيت لم تعد تسمع. خرجت إلى الطريق، مترنحة نحو القرية بخطى متيبسة، كأن كل خطوة تمزق أحشاءها. لم يكن هناك شيء يمكن أن تؤذيها به مدام ديرين أكثر مما كانت تشعر به بالفعل. مرة أخرى، تحول خوفها وغضبها إلى الداخل، ضد نفسها. لقد كرهت ذاتها. لماذا؟ ماذا فعلت؟

آه، لو أنها فقط فعلت شيئًا!
لم يكن ثمة ندم قادر على إيلامها أكثر من هذا الخزي الأعمى، الغامض، الذي كان يصرخ في دمها ولحمها. كانت أصابعها مشدودة إلى صدرها، تكاد تنتزع جلدها بعنف.

عندما وصلت إلى ساحة الكنيسة، لم تلحظ حتى أنها كانت تعرج. كان ولدا صانع الجعة، اللذان لا يفوتان فرصة للصياح في وجهها "وجه الجرذ!" كلما مرّت، يراقبانها الآن عن بعد، صامتين، متلاصقين ببعضهما. دقّ الجرس معلنًا عن قداس الصباح الأول.

واصلت موشيت سيرها بنفس الوتيرة. بالكاد بدأت تدرك إلى أين كانت ذاهبة، فقد وصلت إلى هذا الحد كأنها في غيبوبة.

على مشارف القرية، خلف المنازل الأخيرة، وقف منزل ماثيو ـــمبنى حديث من الطوب الأحمر، يتجاوره سقيفة ومخزن صغير، على حافة طريق غارق تحفّه الشجيرات ويمتد نحو الحقول.

لم يكن الفضول هو ما قادها إليه. رغم العاصفة التي اجتاحت عقلها، كانت تدرك تمامًا أنه في مثل هذا اليوم، يمكنها أن تعرف الحقيقة عمّا جرى في الليلة الماضية من أي شخص، دون أن تعرّض نفسها للخطر.

حتى تُدفن والدتها، كانت تنتمي للمجتمع الذي تجمّع حولها بوقار ممزوج بالخشية والتعاطف الغامض. ففي القرية، لا يكون هناك سوى ميت واحد، تمامًا كما لا يكون هناك سوى عمدة واحد أو كاهن واحد. لابنته امتيازات غير معلنة، هي الأخرى.

لكن القوة التي دفعتها نحو منزل ماثيو، كانت من ذات طبيعة القوة التي جعلتها تنقلب على نفسها. لقد استسلمت لقانون ثابت لا يرحم، كالقانون الذي يحكم سقوط الأجساد في الفراغ. لبعض أنواع اليأس تسارعها الخاص، وكان يأسها يسحبها بلا مقاومة نحو نهايته. لم يكن هناك شيء يمكنه إيقافها الآن. ستتبع ألمها حتى آخره.

رغم ذلك، شيء واحد أدهشها. القرية كانت هادئة... كأنها مجرد أحد عادي، بتلك السكينة الخفيفة التي تتكثف فجأة حين تدقّ الأجراس.

حتى الآن، لم تكن قد انتبهت لهذا الصمت، فقد كانت حالتها الداخلية تجعلها تعيش الواقع بألوانها الخاصة، لكن ببطء بدأت تدرك كم كان هذا السكون غريبًا... بينما كان الجميع، بلا شك، يعرفون عن الجريمة.

لم ترَ في ذلك بارقة أمل، بل استقبلته كإشارة نذير سوء. كأن القرية، بعداوتها المستترة، كانت تنحني أمامها، وتتسع من حولها تلك المنطقة الغادرة من الصمت الذي صار يبتلعها أكثر فأكثر.

ما إن وصلت إلى مدخل الممر، حتى أدركت، ولو بشكل غامض، حماقة ما كانت على وشك فعله. لكن الأوان قد فات للتراجع. لم يكن بإمكان إرادتها المنهكة أن تستمر إلا بالتحدي، مثل وحش مطارد بلغ أقصى حدود تحمله، فيقفز فجأة نحو الكلاب، ثم ينهار ميتًا.

ومع ذلك، لم تملك الشجاعة لفتح البوابة.
كانت البوابة مصنوعة من ألواح خشبية عريضة متشابكة، فتوقفت موشيت، تلهث وقلبها يخفق بعنف. راحت يداها المتعرقتان تتركان ظلالاً قاتمة على الطلاء.

كان الجرس الأول للقداس لا يزال يرن ...وفجأة... ماثيو لم يكن ميتًا، ولا حتى مصابًا. بل كان قد ظهر لتوّه عند النافذة، مرتديًا قميصًا بأكمام مرفوعة، ووجهه مغطى برغوة الحلاقة. من الوا ضح أنه كان يراقبها من خلف الزجاج منذ مدة، إذ نادى عليها فورًا.

صوته، مثل أصوات رجال الطبقة الدنيا من منفّذي القانون، كان يحمل نبرة متناقضة، تجمع بين المزاح القاسي والتهديد المبطّن، مما كان يثير في نفسها القلق والرعب.
"ما الذي تفعلينه هناك؟"

لم تستطع الرد، ولا الهرب.

"حسنًا، من الجيد أنك أتيتِ. أريد أن أتحدث معكِ. تعالي، لن أؤذيكِ".

غاب عن النافذة. وبعد ثوانٍ، ظهر عند الباب بعرض كتفيه الضخمتين. صعدت موشيت الدرج ببطء. أدى صوت خطواتها إلى ظهور زوجة ماثيو من المطبخ، بشعرها الأحمر النحيل المنسدل بإهمال.

"اترك الفتاة وشأنها، كميل. أمها ماتت اليوم فقط"!

حدث أمر غريب.
تابعت موشيت سيرها دون وعي، ثم توقفت فجأة بجانب المرأة الشابة، وأسندت رأسها على مريولها الأزرق. كانت حركتها تلك عفوية، أشبه بمن يستيقظ من حلم.

ربّتت مدام ماثيو على رأسها بلطف، ثم رفعت وجهها لتنظر إليها. لكن ملامح موشيت كانت متيبسة وقاسية إلى درجة أن المرأة شهقت بدهشة ونفور.

كانت ابنة موظف بريد من أميان، ولم تعش يومًا في الريف. كان وصف "المتوحشة" الذي يطلقه القرويون يثير في ذهنها صورة زنجي بأسنان بيضاء لامعة، مثل عازفي فرق الجاز، لكنه عارٍ، يتدلى من أنفه خاتم نحاسي.

"اسمعي "...تابع ماثيو بصوته الناعم الذي كان يخفي وراءه خطرًا، "أنتِ تعرفين أرسين، صحيح؟ حصل بيننا شجار صغير الليلة الماضية، لا شيء جدي، حول مصيدة، مجردِ خلاف بسيط. لكنه كان مخمورًا أكثر مما رأيته من قبل. هو رجل يستطيع تحمل الشراب، لكن هذه المرة كان ثملاً بشدة. على أي حال، حدثت بيننا مشادة صغيرة، لا علاقة لها بعملي، ولا بأي شخص آخر.

لكن الشرطة في تيفوج ألقت القبض عليه هذا الصباح. يقولون إنه فجّر أكثر من أحد عشر كيلومترًا من النهر بالديناميت، بالتعاون مع رجال من بولون، الذين أخذوا الأسماك في شاحنة سريعة. طاردتهم الشرطة لأكثر من عشرين دقيقة، لكنهم تمكنوا من

الفرار. أما أرسين، فقد هرب بالطبع، لكن أحد رجال الشرطة ـــ شوفه ـــ زعم أنه تعرّف عليه. قبضوا عليه بعد بضع ساعات، على بُعد خمسة عشر كيلومترًا من هناك.

أخبر الشرطة أنه التقى بكِ الليلة الماضية، بالقرب من مزرعة بولانك. إن كان هذا صحيحًا"...

"صحيح، سيدي"، أجابت موشيت بأدب غير مألوف لديها.

انفجر ماثيو ضاحكًا.
"أنتِ لستِ غبية"، قال" .أراهن أنكِ رأيتِ أرسين هذا الصباح. ربما جاء إلى بيتكم ليصنع لنفسه حجةً. وإلاَ، لماذا جئتِ إلى هنا؟ فأنتِ لا تزورينني كثيرًا".

لم تكن كلماته بحد ذاتها ما ضرب موشيت، بل طريقته الساخرة في الحديث. لم تعتد السخرية أبدًا، وكانت تخيفها أكثر مما تغضبها.

"أو ربما والدكِ رآه؟ أرسين أذكى من أن يرسلكِ مباشرة إلى فخ الأسد".

"بحق الله، اتركها وشأنها "!جاء صوت زوجته من المطبخ" .ألا ترى أنها على وشك الانهيار؟"

تقدمت مجددًا نحو موشيت، لكن الأخيرة تراجعت ببطء إلى الحائط. كان صوت المرأة المشفق قد شتّت إرادتها، جعلها ضعيفة، بلا دفاع.

"أنت تضيع وقتك"، قال ماثيو وهو يهز كتفيه بلا مبالاة.
"لا أريد بها أي سوء، لكن انظر إلى عينيها. إنهما تمامًا كعيني قطة متوحشة".

"لقد رأيت أرسين الليلة الماضية"، واصلت موشيت، "كما أنني أقف هنا الآن، هذه هي الحقيقة، سيد ماثيو".

"وأين رأيته إذن؟"

"في كوخه، في غابة موري".

"حسنًا، أيتها الفتاة الوقحة، وماذا كنتِ تفعلين في كوخه، هاه؟"

"دخلتُ لأحتمي من الإعصار... أقصد، من المطر".

"لم أكن أعلم أنكِ بهذه الرقة. تخافين من بضع قطرات مطر الآن، أليس كذلك؟"

صمتت موشيت للحظة، ثم قالت" :أخذني السيد أرسين".
لكنها توقفت فورًا، فقد رأت النظرة المتبادلة بين ماثيو وزوجته، فاحمرّ وجهها بعنف.

"وأين كنتِ عندما أخذكِ إلى هناك؟ قولي الحقيقة الآن".

"في المدرسة".

"في المدرسة؟! هل تذهبين إلى المدرسة في الليل؟"

"لم يكن الليل قد حلّ بعد، "واصلت موشيت بصوت متقطع، "كنتُ قد احتميتُ عند حافة الغابة، وكان السيد أرسين قادمًا من سورفيل، أعلم ذلك لأنه أخبرني بذلك"...

"ماذا كان يمكنه أن يخبرك؟ كان مخمورًا تمامًا في ذلك الوقت"!

"لا، سيدي، لم يكن كذلك. كان يسير بشكل طبيعي".

"لا تكوني سخيفة! ألا تعرفين أنه يفقد صوابه حين يشرب؟ عندما يكون لديه لتر من الشراب داخله، يكون ثابتًا على قدميه تمامًا مثل الكاهن في موكب كوربوس كريستي! على أي حال، ماذا قال لكِ؟"

"قال إنكما تشاجرتما بسبب مصيدة، وأنك كنت مخمورًا أيضًا، سيد ماثيو".

ضحك ماثيو بقهقهة زائفة، "يا لها من فتاة "!ثم أردف:
"على أي حال، تابعي حديثكِ. لا تخافي. خرجتِ من المدرسة، احتميتِ في كوخ أرسين، توقف المطر عند منتصف الليل تقريبًا، وبعد ذلك عدتِ إلى المنزل، أليس كذلك؟ حتى لو كنتِ تقولين الحقيقة، فلا شيء يمنع أرسين من الذهاب إلى تيفوج لمشاهدة شروق الشمس. هذا يكفي للشرطة".

"لم أعد إلى المنزل حتى بدأ الفجر، سيد ماثيو. بقيتُ هناك تقريبًا طوال الليل".

كان لسانها جافًا جدًا لدرجة أن بقية كلماتها أصبحت غير مفهومة. لقد نسيت أن جريمة الصياد لم تكن سوى وهم، لا أكثر واقعية من الإعصار، وأن الأمر الآن لا يعدو كونه مجرد قضية صيد غير قانوني، مثل عشرات القضايا التي مثل فيها أرسين أمام محاكم المنطقة.

"طوال الليل؟ قضيتِ الليل كله في كوخ أرسين؟ حسنًا، أيتها الفتاة، بالنسبة لشخص في عمركِ، لا يبدو أنكِ تدركين ما تقولينه. طوال الليل، هاه؟"

توقف عن الضحك فجأة، فقد رفعت زوجته أصابعها إلى شفتيها.

"اصمت يا كميل، "قالت" .لا تكن قاسيًا عليها".

استدارت بسرعة نحو موشيت، وأمسكتها من خصرها، ثم انحنت حتى صار وجهاهما على مستوى واحد، إذ كانت أطول بكثير.

"كنتُ سأقسم على ذلك، "قالت" .اشتمّها بنفسك. الفتاة المسكينة تفوح منها رائحة الكحول. ذلك الوغد الوسخ جعلها تسكر أولاً".

حررت موشيت نفسها على الفور.

"يا لهم من رجال أغبياء، "واصلت المرأة بصوت هادئ. "بمجرد أن رأيتكِ عندما دخلت، عرفت أنكِ لم تقضي الليل في المنزل. لا يزال شعركِ مليئًا بإبر الصنوبر. ولم أكنَ بحاجة إلى شمِّ الكحول؛ عيناكِ ما زالتا تبدوان غريبتين. كنتُ متأكدة طوال الوقت أنكِ تقولين الحقيقة. لكنكِ لم تخبرينا بكل الحقيقة، أليس كذلك؟ ... هيا، كميل، اتركنا الآن".

"لا تذهب، سيد ماثيو"!

انطلقت هذه الصرخة من شفتي موشيت قبل أن تعي ذلك. لقد عبرّت عن الرعب الذي شعرت به من فكرة البقاء وحدها مع المرأة، تلك التي أيقظت فيها ذلك العار السري الذي لا تشعر به المرأة حقًا إلا أمام امرأة أخرى، والذي، مهما ندر ظهوره، يحمل طابعًا مقدسًا، عميقًا ومريعًا.

ماثيو، الذي كان قد بدأ يتحرك نحو الباب، استدار فجأة. ورغم فظاظته، فإن صرخة موشيت هزّته بوضوح. احمرّ وجهه، وقد بدا عليه الارتباك الشديد، ثم ألقى نظرة نحوها.

لم يكن لها من مهرب الآن. ففي محاولتها التراجع أمام زوجة ماثيو، دفعت بنفسها أبعد عن الباب. حدّقت فيه بعينين يائستين، تراقبه من زاوية نظرها، ورأسها مرفوع إلى الخلف حتى بدت شرايين عنقها النحيل تخفق كقلب مذعور.

قال ماثيو" :دَعيها وشأنها، لا تدفعيها إلى الجنون. انظري كيف ترتعش يداها".

لكن المرأة لم تستسلم. قالت، وصوتها يرتعش بالغضب" :لكن فكرة أن ذلك الوحش... ذلك الوغد... آه، إن دمي ليغلي في عروقي! ألا ترى كيف تعاملت مع أرنب بريّ؟ لم تكن لترف له جفناً حتى لو كاد كلبك يبتلعه، والآن لا تكترث لما فعله بتلك المسكينة؟"

نظر إليها ماثيو ببرود وقال" :هذا ليس من شأني. الفتاة لها أب، وإذا أراد أن يرفع دعوى، فهو حرّ في ذلك".

ضحكت المرأة بمرارة وقالت" :أب؟ أتسميه أبًا؟ لا تكن سخيفًا! ذلك الوغد سيبيع ابنته مقابل كأس من الشراب "!ثم التفتت إلى موشيت وأضافت" :اسمعي يا ابنتي، لا يمكنني أن أسألك أي شيء اليوم، حالتك لا تسمح بذلك. ولكن إذا عدتِ إليّ غدًا، سأعطيكِ عشرة فرنكات لمجرد أن تخبريني بما حدث، إذا رغبتِ بذلك، لا أكثر".

بقي وجه موشيت بلا تعبير للحظة، ثم بدأت تزحف ببطء نحو الباب، متحاشية الارتعاش عندما لمست يد المرأة خدّها برفق. لم تكن كلماتها ما شغل تفكيرها، بل التهديد الجديد الذي بات يلوح في الأفق ضد أرسين.

وهنا، في تلك اللحظة، اندفع كل الغضب الحيواني، الهمجي، المتوارث عبر أجيال من الفقر المدقع، متجذرًا في أعماق دمها، ليجد طريقه إلى لسانها. شعرت كأن فمها يمتلئ بطعم مرير، وكأن لعابها قد تحوّل إلى سائل حامض، يلهب حلقها. وما إن بلغت العتبة، حيث لامس الهواء البارد جبينها ووجهها وجسدها النحيل تحت فستانها الخفيف، حتى استعادت صوتها.

لم تكن إهانة، بل تحدٍّ جريء هو ما اندفع من شفتيها، لكن في تلك اللحظة، لم يكن هناك فرق بين الاثنين. فحتى أصغر الكلمات، في صمت القرية الذي يلفّها ككفن، كانت تحدث دويًا هائلاً بداخلها، كأنها جرس معدني يهتزّ بعنف.

قالت بصوت واضح وجليّ" :السيد أرسين هو عشيقي، اسألوه إن شئتم، سيخبركم بذلك".

ثم قفزت على الدرج، وكادت أن تتعثر عند آخره، لكنها استعادت توازنها، ثم مضت في طريقها عبر الزقاق الغارق في الظل، تسير بهدوء وثبات، منتبهة ألا تنزلق في أخاديد الطين بحذائها الخشبي.

كان طنين الألم والضجيج يملأ رأسها، يكاد يصيبها بالدوار، لكنها سمعت صوت ماثيو يتحدث من خلف الباب المغلق:
"لا تتوقعي مني أن أركض خلفها، وإذا كنتِ تشعرين أنكِ مضطرة لفعل شيء، فاذهبي غدًا إلى العمدة وأخبريه بأمرها".

وعند عودتها عبر القرية، كانت الفكرة تتكوّن ببطء في عقلها. وصلت إلى منزل دارْديل دون أن يلاحظها أحد. كان الوقت الذي يسبق قدّاس الأحد الكبير ساعة سكون وسلام، كما كان دومًا. لا تتغير إيقاعات الحياة في القرى الفرنسية عبر القرون بسهولة. أما تفسير الصمت والفراغ في الشوارع، فهو أن الجميع "يستعدون."

ولكن لأي شيء؟ لم يعد أحد يذهب إلى القدّاس، ومع ذلك، عند التاسعة صباحًا، لا يزال الآباء يرتدون قمصانهم المكوية بنزق، بينما يلعنون ياقات النشا الصلبة، والأمهات يقمن بتقشير الخضار للحساء، بعد أن وضعن بعناية فساتين الصوف السوداء والجوارب على السرير استعدادًا للنهار.

أما منزل دارْديل، فقد كان ملكًا سابقًا لأحد سكان القرية، لكن لعقد كامل، كانت تقطنه خادمة عجوز، خدمت لعقود في بيت الماركيز دي شامبان. ورغم أنها باتت هشة، لا تتحرك إلا مستعينة بعكازين فضيّي المقبض، هدية من الماركيز الراحل، فإنها لا تزال تزور المرضى، وتسهر إلى جوار الموتى، كجزء من تقاليد لا تزال تنبض بالحياة، رغم كل شيء.

عند أول رنينٍ لجَرَس الموت، ذلك الجرس الذي كثيرًا ما كانت تقرعه بنفسها، مستخدمة أصغر الأجراس الثلاثة، وقد أراحت عصاها على الأرض وجسدها الهزيل، الأخف وزنًا من جسد رضيع، يتأرجح بالكاد عند نهاية الحبل، كانت العائلات الثكلى تراقب من النوافذ انتظارًا لقدومها.

لم يكن عليهم الانتظار طويلاً. كانت تدخل دون اكتراثٍ بتحياتهم الهادئة، متجهةً مباشرةً نحو سرير الميت. وقد لاحظوا جميعًا أنها كانت دائمًا تخفض نظرها، كأنها تدّخر قوتها... أو ربما متعتها.

بعد أن ترسم إشارة الصليب، كانت تضع في زاوية الغرفة حقيبتها الخشنة بعناية، تلك التي تحتوي على لوازم السهر: زجاجة قهوة سوداء ممزوجة بقطرة من الروم، مدفئة نحاسية للقدمين مع قوالب الفحم الصغيرة، وشريحة خبزٍ مدهونة بالزبدة ملفوفة في منديل أبيض ناصع. لم تكن تجلس بجوار المدفأة، ولم تكن تبدأ أسئلتها حتى تفرغ من هذه الطقوس.

كانت أسئلتها دائمًا نفسها، وغالبًا ما كانت تجيب عنها بنفسها، تاركةً حتى أكثرهم ثرثرةً في صمت مشوب بالخوف، يستمعون إلى مونولوجها الغريب، يتأملون ابتسامتها الوديعة وعينيها الزرقاوين الباهتتين. وبينما هي تثرثر أو تغفو، كانت تجد في جيوب فستانها الواسعة حلوى الكراميل للأطفال، تلك التي كانت غالبًا ما تلتصق ببعضها، حتى أنها أحيانًا كانت تلعقها لتنظفها قبل أن تعطيها لهم.

طوال النهار، لم تكن تبدو واعيةً بوجود الجثة أو بتدفق الزائرين الذين يأتون لتقديم واجب العزاء. ولكن مع حلول المساء، عندما تكون النساء من الجيران قد انسحبن واحدةً تلو الأخرى، وحين تكون العائلة، التي يثقلها الحرج، قد جلست أخيرًا إلى المائدة قائلةً بنبرة مترددة" :ماذا عسانا أن نفعل؟ لا بد من الحفاظ على قوتنا ".عندئذٍ كانت تنهض بهدوء، متجهةً نحو الجثة.

كانت أعينهم تتبعها وهي تعبر الغرفة وتختفي في الظل، بجسدها النحيل المهتز مع ضربات عصاها الصامتة ذات الرؤوس المطاطية، كقاربٍ صغير يرفعه المدّ البطيء.

لساعاتٍ طويلة كانت تظل جالسةً بجوار الميت، عيناها معلّقتان به دون انقطاع. لم يكن أي تجعدٍ في الكفن يفلت من يقظتها، وكانت تسويّه بأصابعها العظمية الطويلة ذات الأظافر الحادة. لم تكن تسمح لأي ذبابةٍ شاردة أن تحوم بالقرب من وجه الميت، ذلك الوجه الذي كانت تغطيه فور جلوسها بمنديلٍ أبيض، كان دومًا هو نفسه، وقد اصفرّ بفعل الغسيل المتكرر.

رغم أنها كانت تحب أن يُنظر إليها على أنها امرأةٌ ورعة، بل وكانت تقوم أحيانًا بمهام الساكريستان دون مقابل، فإن أحدًا لم يرها تصلي. على الأقل، لم ير أحدٌ شفتيها تتحركان قط؛ فقد كانتا دائمًا مشدودتين في هيئة جمودٍ متيقّظ. لم يكن هناك شيءٌ يمكنه أن يصرفها عن مهمتها الغامضة، ولا أن يبدد تأملها المبهم.

إذا كان موضع الشمعة بعيدًا عن سرير الميت، كانت تقرّبها حتى تسطع على ملامحه المتحجرة، كأنها تريد أن تسبر أغوار أفكاره التي باتت عصيّةً على الفهم.

كان يُقال إنها تنام أثناء سهرها، لكن بعينيها مفتوحتين، كما يُشاع عن كثيرٍ من العجائز أمثالها. وبالفعل، نادرًا ما كانت تردّ على من يخاطبها في أثناء الليل، وإن حدث وسألها أحدٌ سؤالاً، لم يكن أحدٌ يجرؤ على تكراره. فقد كان في تأمل عينيها، اللتين تعكسان ضوء الشمعة، ما يثير الخوف من إيقاظ الميت وحارسته معًا.

وعندما تبدأ الديكة بالصياح ويخفت ضوء الشمعة، كانت تبدو كأنها تنكمش داخل كرسيها. أحيانًا، كانت تضع مرفقيها على السرير، وتغرق في تأملٍ أخير، كأنها تنتظر أن يكشف لها ضوء الفجر الباهت عن سرٍّ طالما بحثت عنه عبثًا لسنواتٍ طويلة.

وحين تستيقظ القرية، وتُفتح أبواب الإسطبلات، وتتعالى أصوات الماشية وهي تجرّ سلاسلها، كان أهل المنزل يستعيدون أصواتهم اليومية، يحاولون إخفاء بهجتهم العميقة بصباحٍ جديد، وهي البهجة المتجذرة في نفوس الفلاحين. عندها فقط، كانت تتظاهر بالنوم، تخفي يديها تحت شالها الصوفي، ثم تستيقظ على ضجيج الإفطار.

كان التعب مرتسمًا على وجهها الشاحب، لكنه لم يكن إرهاق الأجساد ولا سهر الليالي، بل كان شيئًا أعمق، غامضًا، لا يُفَسرَّ. وكان من الصعب على أي شخصٍ أن ينظر في عينيها؛ فقد كانتا باهتتين، ميتتين، كأنهما عينا ضريرة. ومع ذلك، لم تكن تبالي بارتباكهم، بل تتناول كوب القهوة الذي يُقدَّم لها، تشربه واقفةً، مسندةً ظهرها إلى الجدار.

بعد ذلك، كانت تخرج ما تبقى من زادها، تقسمه على الأطفال المتوجهين إلى المدرسة، ثم تمضي في طريقها. وعند المنعطف، حيث يلامس ضوء الصباح البارد الطريق الترابي، كانت تترك وراءها أثرًا غامضًا، كأنها ظلٌّ لا يبرح المكان.

كان قطّها، كعادته، ينتظرها عند عتبة الباب.

"موشيت، سأذهب لأسهر على والدتك الليلة"، قالت العجوز.

كانت موشيت قد انعطفت فجأة إلى اليمين لتتفادى المقهى، الذي انفتحت أبوابه على مصراعيها، فوجدت نفسها وجهًا لوجه أمام الساكريستان العجوز.

"إن كنتِ ترغبين في ذلك... افعلي ما شئتِ"، قالت بصوتٍ متردد.

تلك العينان الزرقاوان الباهتتان، الممتلئتان بفضولٍ لا يُقاوم ورحمةٍ غريبة، كانتا تحدّقان فيها بنظرةٍ توحي بتواطؤٍ غامض.

"ادخلي"، قالت العجوز بصوتٍ خافت.

امتثلت موشيت، ليس لأنها أرادت، بل لأنها شعرت أنها لم تعد قادرةً على المضي قدمًا. سقطت على كرسيٍ بجانب الموقد الخالي. كانت البلاطات النظيفة تفوح منها رائحة الشمع والتفاح الحامض. في خشبِ الخزانة الداكن، رأت انعكاسًا باهتًا لوجهها.

جلست العجوز بصمتٍ أمامها. كانت الساعة، التي يعلوها ديكٌ برونزي، تئن ببطء، وكان سقوط رقاصها النحاسي يلقي بريقًا عابرًا على الجدار. قاومت موشيت ثقل الصمت لبعض الوقت. لكنها كانت معركةً خاسرة. كان الأمر أشبه بقماشٍ خفي يغطي وجهها وكتفيها، وكان الإحساس قويًا لدرجة أنها بذلت جهدًا هائلاً لتمزيقه، لكنها لم تستطع الحراك. وحين استسلمت نهائيًا، سمعت صوت العجوز من جديد، وكأنها تتابع جملةً كانت قد بدأت بها قبل لحظات.

"أنتِ مضطربةٌ بعض الشيء... خذي الأمور بروية، يا صغيرتي. ابقي هنا".

"لا"، قالت موشيت" .يجب أن أعود".

عاد الصمت الغريب ليخيّم على الغرفة، ولكن هذه المرة، لم تحاول موشيت كسره. بل غاصت فيه بنوعٍ من المتعة الجسدية، كأنها تغوص في حوض ماءٍ دافئ.

"كنتِ على وشك ارتكاب خطأ"، تابعت العجوز" .هناك شيءٌ في عينيكِ... حين مررتِ أمام منزلي هذا الصباح، قلت لنفسي: هذه الفتاة تخطط لأمرٍ سيئ".

سكتت العجوز. كانت موشيت تتابع إيقاع الساعة بنوعٍ من اللذة الجديدة. نادرًا ما كانت أحلامها تتسم بهذه الفوضوية وهذا الشرود العميق. كل شيء كان غائمًا وغير واضح، كأن أفكارها تتحرك ببطءٍ شديد، مثلما يحدث قبل الغرق في النوم العميق، حيث تكون الروح عالقة بين اليقظة والعدم.

"لقد كنتُ أفكر فيكِ منذ شهور"، واصلت العجوز" .أليس ذلك غريبًا؟ وأنا أعرفكِ جيدًا. كل شيء بدأ ذات يومٍ من الصيفِ الماضي... هل تذكرين؟ لقد أعطيتكِ تفاحةً خضراء".

تذكّرت موشيت، لكنها لم تظهر أي علامةٍ على ذلك. لم تثق بأحدٍ قط—بالمعنى الدقيق للكلمة— والاندفاع الذي دفعها قبل ساعات إلى سريرِ والدتها كان الأول من نوعه في حياتها. كانت تعرف، بشكلٍ غامض، أنه سيكون الأخير، وأن غريزةً مجهولةً بداخلها قد ماتت لحظة ولادتها.

كان سرّها لا يمكن مشاركته، فقد كان مرتبطًا بأشياء كثيرة متشابكة، كأنها نبتةٌ ضعيفة، تقتلع معها عند انتزاعها كتلة الطين التي غذّتها. ومع ذلك، لم تستطع أن تتحرر من هذا الشعور الغريب، هذه النشوة الخفية التي كانت تنسج حولها خيوطًا غير مرئية، ببطءٍ وصبرٍ عجيب.

"لم أقل شيئًا من قبل، لأن الوقت لم يكن مناسبًا"، استأنفت العجوز" .كل شيء يحدث في أوانه. لماذا تحاولين إيقاف حصانٍ هائج يرفس ويعض؟ انتظري حتى ينهكه التعب، وحينها فقط تحدثي إليه بلطفٍ وضعي له اللجام. قليلون هم من يستطيعون مقاومة كلمةٍ رقيقة في الوقت المناسب. لكن الناسٍ يتحدثون كثيرًا... يتحدثون إلى درجة أنه حين يحين وقت الكلام، لا يبقى شيءٌ في كلماتهم. كلماتهم تصبح مثل الغبار المتطاير عند دراس القمح".

نهضت العجوز وفتحت الخزانة. انتشرت في الغرفة رائحة خفيفة دافئة من رعي الحمام. كانت الخزانة ممتلئة حتى حافتها بصفوفٍ من الكتان الأبيض، الذي أضفى عليه لمعانُ الخشب المعتّق لونًا ذهبيًا خافتًا. في الغرفة المظلمة، التي لا يضيئها سوى نافذةٌ وحيدة مسدلة الستائر، بدا الخزان وكأنه ينبعث منه نورٌ ناعم لا يُصدّق.

أي امرأةٍ من طبقة موشيت لم تكن لتحلم بكنزٍ كهذا؟ في أي وقتٍ آخر، كانت دهشتها ستتحول إلى غضب، لكنها الآن كانت مرهقةً جدًا لدرجة أنها لم تستطع الشعور بأي شيء سوى الانبهار الصامت. وعندما لامست أنفها تلك الرائحة الرقيقة، خُيّل إليها أنها تشعر بنعومة الأغطية اللامعة وهي تلامس يديها.

"في يوم وفاة أمك، لا يمكنك العودة إلى المنزل بهذا الشكل"، قالت العجوز" .اليوم يومٌ مميز، وعليكِ أن تكرّميه. صدّقيني، يا صغيرتي، إنه يومٌ مهم. هل فكّرتِ يومًا في الموت؟"

لم تجب موشيت. كان بصرها لا يزال معلقًا بالخزانة. وفجأةً، اختلطت فكرة الموت في ذهنها مع صورة الأكوام المرتبة من الأغطية الناصعة.

"أنا أفهم الموت"، قالت العجوز بصوتٍ متهدّج، وكأنها تهمس بسرٍّ دفين. "وأفهم الموتى أيضًا. حين كنتُ في مثلِ سنّكِ، كنتُ أخشاهم، أما الآن فأحادثهم، بطريقتي الخاصة، وهم يجيبونني. إنهم لا يتحدثون بصوتٍ مسموع، بل همسٌ خافت، نَفَسٌ عميق يأتي من أغوار الأرض".

"ذات مرة، أخبرتُ الكاهن بذلك، فانتهرني. يظنّ أن الموتى في السماء. لا أرغب في مجادلته، لكنني أتمسّك بفكرتي. يقولون إن الناس في الزمن القديم كانوا يقدّسون الموتى، كانوا يرونهم آلهة. أظنّ أن ذلك كان الدين الحق، ألا تظنين؟ أنتِ تعتقدين أن الموتى لا تفوح منهم رائحة طيبة. أعلم ذلك. حين يغلي عصير التفاح، تفوح منه رائحة تشبه زريبة الأبقار الرطبة. الموت يشبه ذلك العصير؛ لا بدّ له أن يلفظ رغوته العفنة".

ثمّ انطلقت العجوز نحو ركنٍ قصيٍّ من الغرفة، تجرُّ قدميها المتيبستين، قبل أن تضع على الفراش رزمةً ثقيلة، ملفوفةً بعناية في قطعة قماش.

"لو قلتُ ما أفكر به"، تابعت وهي تسحب دبابيس من ثوبها بأسنانها العتيقة، "لضحكوا عليّ. وأنتِ أيضًا... في أي يوم آخر، كنتِ ستعبسين الآن. لكن قلبكِ اليوم نائم. لا تحاولي إيقاظه بسرعة، يا صغيرتي. إنّها من أبهى لحظات الحياة. لا أستطيع فعل شيءٍ لأولئك الذين استيقظوا تمامًا، ففيهم من السوء ما لا يُطاق. كأنكِ تضعين يدكِ في جحرِ غريرٍ متوحش.

أتذكرين حين مررتِ هذا الصباح؟ توقّفتِ للحظة وسط الطريق. وجهكِ كان ساكنًا تمامًا، عدا عينيكِ. وحين عدتِ، كانتا نائمتين أيضًا. ما الجدوى من إيقاظك؟ تساءلت. ألم تعاني ما يكفي من البؤس؟"

همست بهذه الكلمات في أذن موشيت، فرفعت الفتاة رأسها ببطءٍ كأنها تخرج من حلمٍ بعيد.

"أعرف أنكِ تفهمين"، قالت العجوز، وقد تلألأت حمرةٌ شاحبة في وجنتيها المليئتين بالتجاعيد. "أظنّ أنه ليس لديكم حتى كفنٌ تلتفّ فيه، أليس كذلك؟ يؤلمني أن أرى كيف يعاملون موتاهم هنا. قبل أن يأتي المسيح، كانوا يحنطون الجثث بالعطور، بالتوابل الغالية التي تكلف ثروة. أما الآن، فلا يغسلونها حتى! حتى الماركيز دُفن بلحيته التي امتدت لأسبوع، وأظافره المتسخة. لو استطاعوا، يا صغيرتي، لوضعوا الموتى في توابيتهم فورًا، والكاهن كان سيبارك ذلك!

ما حاجته إلى الطواف حول النعش بالماء المقدّس والبخور؟ إنه لا يرى في الجسد سوى كيسٍ فارغ يجب التخلص منه. لكن عليكِ أن تعاملي الميت كما تعاملين أعزّ حبيب، أن تدللِيه، أن تكرميه قبل أن ينزل إلى الأرض ليطهّر ذاته".

كانت عيناها الزرقاوان الباهتتان تشعّان ببريقٍ غامض، بينما حدّقت موشيت بها بذهولٍ لم تستطع إخفاءه. بدت العجوز كأنها غارقة في ذكرياتٍ لا يدركها أحد سواها، وفي صوتها، وفي ملامحها المتخشبة، وفي ابتسامتها الثابتة، كانت هناك براءةٌ مروّعة.

"سأحضر لكِ إحدى ملاياتي، أجودُ ما أملك. سنكفّنها معًا، يا صغيرتي. أفعل ذلك لأنكِ تنصتين لي دون أن تضحكي".

ثمّ استدارت نحو الفراش، حيث كانت الرزمة تستقرّ، وفتحتها قليلاً قبل أن تتمتم:

"إنها تذكار. ستجدين فيها شيئًا جميلاً لترتديه، إن أردتِ. لا بدّ أنه يناسب قياسكِ، لكن أخشى أن ألوانه ليست ملائمة... كلّها إما زرقاء أو بيضاء. لقد كانت تلك المسكينة مخطوبة حتى بلغت الخامسة عشرة، تعلمين؟"

رفعت موشيت رأسها قليلاً، وسألت بصوتٍ خفيض: "مخطوبة؟... ماذا يعني ذلك؟"

"كان ذلك نذرًا قطعته أمها"، قالت العجوز بصوتٍ يشوبه شيء من الحنين. "كانت أمها ابنة السيد تريفيني العجوز، ذلك المالك العظيم للمطاحن في روباي، رجلٌ فاحش الثراء. اشترى القصر في ترمولين، على بعد ثمانين كيلومترًا من هنا. كنتُ أخدم هناك كل صيف.

حين قاربتُ الثلاثين، لم تكن صحتي على ما يرام؛ كنتُ نحيلة كالغصن اليابس، صفراء الوجه، ونفَسي مثقلٌ برائحة المرض. لم يكن فتى ينظر إليّ إلا ليضحك. لا بأس! الصغيرة لم تكن تلعب إلا معي، وجدها لم يكن يمانع ذلك. أقول "تلعب"، لكنها في الحقيقة لم تكن تحب سوى القراءة والكلام. كنتُ بطيئة الفهم، قليلة الإدراك، لكنني كنتُ أحبّ مراقبتها. أدركتُ لاحقًا أن المظاهر خدّاعة، فقد رأيتُ من أولئك الفتيات الجميلات الكثيرات، وكم من واحدة منهن قضت نحبها! لو رآنا أحدٌ معًا، لما حسب لي أيّ فرصة، فقد كنتُ هزيلة كقصبة في مهبّ الريح.

وحين عادت الآنسة في أحد الصّيفيات، قافزةً من العربة السوداء المليئة بصناديق الجلد، كانت بيضاء، عطرة، فتية، ولم تنسَ أن تضع يديها الصغيرتين على كتفيّ وتخبرني كم أبدو حزينة. لكن تلك السنة، عادت في الربيع، أبكر من المعتاد. لم أرَها يومًا بهذا الجمال، ولم أنتبه في البداية إلى أنها فقدت الكثير من وزنها. الغريب أنني منذ تلك اللحظة، بدأت أتحسّن. لم أكن أفهم السبب. حتى الخدم لم يعودوا

يتعرّفون عليّ، قالوا إن ملامحي تغيرّت. لكنها لم تكن ملامحي، بل شعورٌ غامرٌ بأن أمرًا عظيمًا سيحدث لي، وأن دوري قد حان أخيرًا.

حين كنتُ معها، لم أعد أشعر بالخجل، وعلى أيّ حال، كان الجميع يولونني اهتمامًا خاصًا، لأن الآنسة كانت مريضة وكنتُ أعتني بها بكل ما أوتيت من حنوّ. لم يكن أيّ شيء يرهقني، ظللتُ مستيقظة ثلاث ليالٍ متواصلة بجانبها، رغم أنه لم يكن من داعٍ لذلك، فقط لأراها نائمة. ربما من هناك بدأ شغفي بالسّهر على الأموات. قبل الفجر بقليل، كانت ملامحها تفقد ألقها، وشبابها يتلاشى، فتغدو ملامحها وكأنها ملكي. فجأة، تلاشى الفارق بيننا. كنتُ أشعر وكأن القوة والحيوية التي كانت تفقدها أثناء نومها العميق تتسلل إليّ، كأن دماً جديدًا يجري في عروقي.

أحيانًا، كانت تتضايق مني، تسألني لماذا أحدّق بها هكذا. فأجيبها بأن لا تخاف. وعندما أقترب منها، كانت تضحك بطريقة غريبة، هادئة، لكنها كانت دائمًا تستسلم في النهاية. كان حناني أقوى من اشمئزازها. بل إنها في بعض الأحيان كانت تضع رأسها على كتفي وتبكي.

كان لشعرها الأشقر رائحة الخلنج البريّ، وكانت رائحة دافئة، آسرة، تجعلني أفكر في الحبّ، أنا التي لم تشغلني أمور الرجال قط. لكن حتى في تلك اللحظات، لم أكن أنسى كم كانت مريضة. كان عرقها على جبينها باردًا وثقيلاً، وكانت تمسحه بأطراف أصابعها باستمرار، تعابيرها ممتقعة، وكنتُ أتصرف وكأنني لا أرى شيئًا. لكنه كان سرّنا المشترك.

ظلّ الأمر كذلك لوقتٍ طويل، لأنها كانت تتأنق كل صباح بعناية، مما جعل أمها لا تلاحظ سوء حالها إلا بعد فوات الأوان. لكنها كانت تذوي بسرعة. كنتُ أسمع الأطباء يتهامسون: "إنها لا تحارب المرض." لكن لماذا كانت ستحارب؟ بعد بضعة أسابيع، ما إن نبقى وحدنا، حتى تستسلم تمامًا. أظنّ أنها كانت تحب أن تريني ضعفها، وجهها الشاحب، عينيها الغائرتين تحت مساحيق الزينة. وعند ياقة ثوبها، تلك التي لطالما حسدتها عليها، كنتُ أرى كيف غدا صدرها مجوّفًا، خاليًا من الحياة. ربما كان ذلك تعويضًا عن التمثيل الذي اضطرت إليه طوال النهار؟

أصبحت تصرّ أن أنام في غرفتها، على سرير صغير بجانبها. كان جدها قد حجز لها مكانًا في أحد تلك المصحات الفاخرة حيث يذهب الأثرياء لينالوا رعاية الموت الهادئة. لكن أمها كانت تقول: "لا داعي للعجلة، فمناخ الصيف هنا جيد، كما ترون أنها لا تستطيع الاستغناء عن فيلومين".

وبالفعل، كانت تتشبّث بي أكثر فأكثر، وأنا بها. لم تكن والدتها مرتاحة تمامًا لهذا الأمر. وكان جدها يقول إنني أهمل نفسي، لكنها كانت تردّ: "بل على العكس، إنها تسمن!" وكان هذا صحيحًا. السهر لم يكن يؤثر بي، وكأنني لم أعد أحتاج للنوم.

أما هي، فلم تكن تنام أيضًا، أو ربما لم تعد تحب النوم".

خلال النهار، كانت تجيء وتذهب كعادتها، وأحيانًا تضحك. كنتُ أبقي نفسي بعيدًا عنها قدر الإمكان، لكنها إن صادفتني، تجاهلتني كأنها لم ترني، أو ابتسمت تلك الابتسامة المترددة الحائرة. وحين كنّا ننفرد سويًا، كانت تتظاهر بالنوم، حتى منتصف الليل، حين توقظها نوباتها من السعال. كنت أجلس على سريرها، وكان قميص نومها يلتصق بجسدها النحيل. وحين يمرّ نوبة الألم، كانت تبدو ضعيفة كطفل أنهكه المرض. كانت تهمس لي بأنها ستموت، وأنها تدرك ذلك، وأن أكاذيب الأطباء كانت تخجلها. ومنذ ذلك الحين، بدا لي أن الموت شيء لا بدّ من الاستسلام له.

كانت تبكي لساعات، بصمت، بلا شهقات، بلا حتى أن ترفّ جفونها، كأن الحياة كانت تتسلل منها رويدًا رويدًا. وفي النهاية، كنت أبكي معها. كانت تهمس لي قائلة: "كم تحبّني!" لم تكن دموعي سيئة، فقد كنتُ أتحمل الإرهاق بلا عناء. والحق يقال، لم أشعر يومًا بجوعٍ أشد مما كنت أشعر به آنذاك. كنت أول من يدخل المطبخ في الصباح، حتى قبل أن يغلي الحليب في القدور. كنت أستطيع أن ألتهم فرسًا بأكمله!

كانت العجوز تتحدث لنفسها الآن، وقد نسيت موشيت والحزمة التي في حجرها، تلفّ ذراعيها النحيلتين حولها. غاصت في بئر ذكرياتها العميقة، ولكن عبثًا، إذ لم تجد في أعماقها ما يطفئ ظمأ نفسها.

"وماذا حلّ بالآنسة إذن؟" قطعت موشيت شرودها بصوتها الأجش، وهي تمسك بذراعها بارتباك، وعيناها تحملان ذلك "النظرة السيئة" التي كانت تثير الريبة.

"لقد أفزعتني يا صغيرتي... أين كنت؟ لا أذكر... لقد أربكتني، يا فتاة".

استراحت موشيت للحظة، فانعكس الدفء على وجنتيها، وشعرت بذلك الصداع الدائري الذي كان علامة على عنادها المتأصل، العنَاد الذي كان يدفع معلمتها إلى الغضب واليأس.

"أيتها العجوز البشعة! لو كنتُ مكان الآنسة، لخنقتك بيدي"!

نظرت إليها العجوز دون خوف، وردّت بسخرية هادئة:

"انظري إلى نفسك... كالقطة المتوحشة! ما شأنك بالآنسات؟ أنتِ سمراء كالغجر. أما هي، فكانت بيضاء، نضرة، كزهرة الصباح".

ثم، بحركة مفاجئة، اقتربت من موشيت، ولمست صدرها، فوق قلبها مباشرة.

"أنا لا أريد لكِ سوى الخير،" همست بصوتٍ دافئ. "أنتِ سيئة، لكن ذلك فقط لأنك لا تفهمين. أظن أنني أعرفَ قصتك بالفعل... فقط أخبريني بها، يا صَغيرتي".

ثم انكمشت في مقعدها، وأخذت أصابعها تتململ بلا توقف، تتحرك فوق ثوبها الأسود، وكأنهما كائنان صغيران، رماديان، يطاردان فريسة لا تُرى.

IV

كان المقلع الرملي القديم مهجورًا منذ زمن بعيد. يقع عند سفح التلال، حيث تراكمت المياه فيه تدريجيًا حتى غمرته تمامًا. في كل شتاء، كانت الينابيع الخفية تتفجر من تحت الحصى المهمل، الذي خلفته الأعمال السابقة، لتبدأ تدفقها الهادئ، منحدرة عبر منحدرات لطيفة في عشرات الجداول الصغيرة، قبل أن تستوي أخيرًا عند الأرض المنبسطة، حيث تتلاقى مع جدول "بلانكيه"، مكونة بركة ضئيلة، ذات قاع مرصوف بالحصى الوردي والأبيض، ومياه صافية إلى حد أن الأسماك كانت تنفر من السكن فيها.

كانت رفيقات موشيت في المدرسة يلتقين الفتيان هناك كثيرًا، لكن في هذا الصباح الأحد، كان المكان موحشًا تمامًا. لكي تتأكد تمامًا من وحدتها، تسلقت الضفة القديمة، التي كانت قد انهارت في بعض الأماكن حتى بدت كأنها مغارة. عند المدخل، عُلّقت لافتة تحذّر المتطفلين، وقد غطّاها الفتيان برسومات فاحشة. وعند اكتمال القمر، كان ظل اللافتة يمتد كصليب فوق المنحدر الشاحب.

من هناك، استطاعت موشيت أن ترى الوادي الذي يستقر فيه قريتها. خيط رفيع من الدخان كان يصعد نحو السماء، بينما كان الهواء مشبعًا برائحة الرمل المبتل، رائحة مختلفة تمامًا عن تلك الروائح الترابية التي ألفتها. كان المكان يفوح برائحة الجصّ الجديد، وبملوحة البحر، ورذاذه البعيد. لقد هربت إلى هنا كثيرًا، في مثل هذه الصباحات، من رائحة بيتها العفنة، ذاك الوكر الذي كانت تعود إليه كل مساء كحيوان متعب، لا دون إحساس خفي بالراحة. فوسط كل هؤلاء الذين كانت تكرههم أو تحتقرهم، لم تجد راحةً إلا في شعورٍ بالنفور العميق.

لم تكن تملك تبريرًا منطقيًا لتمردها على حياتها، ولا لرفضها الباطن لكل ما يحيط بها، لكنها كانت تجد طريقتها الخاصة في الانتقام من وحدتها الغامضة. حين كانت تُنهكها المسافة، كانت تتعمد أن تستلقي في أقذر زاوية من الطريق، وكأنها بذلك تؤكد ازدراءها لكل ما حولها.

لكنها الآن، أكثر من أي وقت مضى، كانت تتذوق شعورها بالاشمئزاز بوضوح جديد، وبتلذذ غريب، كأنها تكتشف أمرًا سحريًا. كانت كلمات العجوز هي المفتاح، هي الطلسم الذي أطلق ذلك الإحساس داخلها. لقد منحتها الكلمات التي جعلتها ترثي لحالها.

كانت موشيت تحتاج إلى جهد شاق كي تستشعر الأحاسيس التي تأتي بسهولة لفتاة المدينة، المعبأة بالأوهام السينمائية والقصص الرخيصة. كان عليها أن تبذل مجهودًا هائلاً فقط كي تفهم أن خسارتها لعشيقها يجب أن تتحول إلى شيء عظيم، إلى حدث مأساوي يضعها في ذلك العالم الغريب الذي لمسته في بعض الكتب، حيث تصبح فجأة واحدة من أولئك القلائل الذين يثيرون شفَقة القلوب الحساسة.

نعم، لقد قالت العجوز الكلمات التي كان يجب أن تُقال، لكن الأعجوبة الحقيقية لم تكن في الكلمات ذاتها، بل في أنها استطاعت بطريقة ما أن تنتزع سر موشيت من أعماقها. لم يكن بإمكان أي حديث أن يلين قلبها المتحجر أو يستدر دموعها.

كل ما بقي عالقًا في ذهنها من حديث العجوز كان كلمة واحدة فقط "الموت". شعرت أنها تسمعها لأول مرة في حياتها. لطالما كان هذا اللفظ فارغًا، بلا لون أو طعم، لا يثير فيها إلا خوفًا غامضًا، هشًا، بلا ملامح. لم تكن تتحاشى الاستماع إليه بدافع رهبة خرافية، بل بسبب لامبالاتها القاسية تجاه الموتى.

في كل الأحوال، كان الموت والشيخوخة بالنسبة لها -كما كانا دائمًا منذ طفولتها المبكرة- وجهين لحدث واحد، شيئًا لا يفصل أحدهما عن الآخر إلا ظلال زمن باهتة.

لكن قلبها لم يكن مقبوضًا بالخوف، بل بالارتعاش اللذيذ لاكتشاف عظيم، بإحساس أنها على وشك أن تتعلم ما لم تستطع أن تتعلمه من تلك التجربة العابرة التي سمّتها حبًا. كانت أفكارها عن الموت طفولية، لكن ما لم يكن ليؤثر فيها من قبل، صار الآن يملؤها برقة مؤلمة، تمامًا كما قد يبدو لنا وجه مألوف فجأة بنظرة الحب، فنعي أنه كان لنا أعزّ من الحياة نفسها، دون أن ندرك ذلك من قبل.

كانت الحزمة التي أعطتها لها العجوز لا تزال ملقاة عند قدميها على الرمل. وبينما كانت موشيت تفكّ الدبابيس الصدئة ببطء، حاولت عبثًا أن تتخيّل وجه الفتاة الميتة. كان الفستان مسندًا على ركبتيها، خفيفًا كطيف شبحيّ، كأنما خرج من عالم غير منظور. انزلقت الموسلين بين أصابعها، مما جعل يدها السمراء تبدو داكنة على نحو مخيف. حدّقت فيها للحظات بدهشة، ثم باشمئزاز، وأخيرًا برعب مباغت.

وفي تلك اللحظة، ولسبب تافه كهذا، تلاشت شفقة النفس التي كانت قد بدأت تنمو داخلها فجأة. يظنّ الناس عادة أن الانتحار فعل كسائر الأفعال، الحلقة الأخيرة في سلسلة من التأملات أو على الأقل الصور الذهنية، خاتمة جدل أخير بين غريزة البقاء وغريزة أعمق، أكثر غموضًا، تدفع إلى النكران والرفض. لكنه ليس كذلك. باستثناء حالات شاذة نادرة، فإن الانتحار حدث مباغت، لا تفسير له، أشبه بالتحلل الكيميائي السريع الذي لا تزال العلوم الحديثة تقدم له تفسيرات متناقضة أو سخيفة.

كانت يدها البنية، ذات الأظافر المتسخة، المجعدة كيد امرأة عجوز، لكنها لا تزال نحيلة كيد طفلة، ماثلة أمامها. كانت نصف مفتوحة، وأصابعها مثنية قليلاً، بدت ميتة تمامًا. وفجأة، رأت موشيت يدها مدفونة في التراب الأسود، كما هي، وأحسّت نحوها بكراهية مباغتة، كأنها لم تعد جزءًا منها، بل صارت شيئًا غريبًا ومروعًا.

إبهامها كان مشوهًا من خراج قديم، والندبة التي خلفها بدت باهتة وبيضاء على بشرتها السمراء. كان والدها يملك إبهامًا شبيهًا، عريضًا ومتضخمًا، ظفره كبير ومنتفخ. لقد كانت يدها من ذلك النوع الذي يجلب الشقاء، يدٌ لا تذكّرها إلا بالإهانات التي لا تُحصى. كم مرة أمسكت بها المعلمة أمام الفصل كله، رافعة إياها فوق مكتبها، مشيرة إليها بازدراء: "يدٌ قذرة! تتحدى أبسط مبادئ النظافة، وتنشر الجراثيم المميتة"!

واليدان اللتان رأتهما قبل ساعات، معقودتين على صدر والدتها الغائر، كانتا من نفس الطالع المشؤوم. بل ربما أشدّ شقاءً، فقد عملتا لسنوات طويلة دون جدوى.

لم تكن والدتها امرأة حنونًا، ولم تتلقَّ موشيت من يديها الكثير من العطف. هل كانت هناك لمسات دافئة، عندما كانت طفلة؟ ربما. لكن طفولتها نفسها قد اختفت، ولم تترك وراءها سوى بقايا باهتة من الذكريات، لأنها - مثل كل المخلوقات التي خُلقت للحلم - كانت ترى طفولتها كصورة ضبابية، لا تتجلى إلا بعد أن تشيخ، أو عندما تقترب من الموت.

بالنسبة للفتيات مثلها، لا تبدأ الحياة الحقيقية إلا حين تستيقظ الحواس. لكن ذلك الزمن، بالنسبة لموشيت، كان الزمن الذي تلقت فيه أقسى الضربات، لأن والدها كان يملك تلك الفطنة القاسية التي تميز الفلاحين.

في مثل تلك الظروف، تجد الفتيات عادة نوعًا من العزاء خارج جدران بيوتهن الكئيبة، حتى لو كان مجرد صداقة مع فتاة من عمرهن. لكن موشيت كانت دائمًا ترفض كل اقتراب منها، بدافع غامض يشبه الغريزة الدفاعية، غريزة لم تفهمها يومًا، ولم تستطع أن تبررها لنفسها.

وفي كل الأحوال، لم يكن وجهها، بتلك النظرة الماكرة المتحفظة، وتلك الجرأة التي تخفي وراءها خوفًا خفيًا، وجهًا يُلهم الألفة أو المحبة.

لقد بدا لها، يقينًا، أنها لم تعرف يومًا حلاوة اللمسة الحقيقية.

إلا ربما مرة واحدة...

حدث ذلك في إحدى العطل في تريمير. كانت تحمل إلى مقهى دومونت سلةً ممتلئةً بالثعابين التي اصطادها العجوز طوال النهار. وفي طريقها، اصطدمت بها فتاةٌ شقراءُ طويلة، استدارت وسألتها عن اسمها، لكن موشيت لم تجب. لم تفعل الفتاة شيئًا سوى أن مررت يدها على خدها بحنانٍ شارد. في البداية، لم تُعر موشيت الأمر أهميةً تُذكر، بل إن اللمسة تركت في نفسها إحساسًا مزعجًا ظل يؤرقها حتى المساء، فحاولت أن تطرده من ذاكرتها. لكنه عاد إليها فجأةً، وقد تحوّل وتبدّل حتى غدا غريبًا عنها، وذلك قبل الفجر بقليل، عندما كانت مستلقيةً على ذلك الفراش البالي الذي اعتادت مدام دومونت أن تطرحه لها في الممر الضيق، المزدحم بالقوارير الفارغة والعلب الصدئة، والمشبع برائحة النبيذ الحامض وزيوت المصابيح الثقيلة.

وبطريقةٍ غامضة، وبينما كانت معلقةً بين النوم واليقظة، شعرت برأسها يستكين في انحناءة ذراعها، وبعطرٍ خفي ينبعث من تلك اليد الدافئة، ثم لاحت لها اليد نفسها، قريبةً منها، حيةً ونابضةً حتى إنها رفعت رأسها دون تفكيرٍ، ووضعت شفتيها استعدادًا لقبلة.

كانت آنذاك في العاشرة، لكنها كانت قد قست بما يكفي لتتجاوز تلك الرعشة المبهمة سريعًا. حتى لقاؤها العابر بآرسين لم يكن كافيًا ليكسر ذلك التمرد العجيب الذي كانت تحمله ضد الحنان، التمرد الذي جعلها غارقةً في عزلةٍ غامضة. لكنها أدركت، كما لو أن جرحًا خفيًا في الأعصاب يمكن أن يبعث الألم في موضعٍ بعيد لا يخطر على بال، أن ذكرى تلك الفتاة الغريبة ولمستها قد تلاشت من ذهنها، لكنها أورثتها شيئًا آخر، فقد أصبحت تنظر إلى يديها وكأنها تكتشفهما لأول مرة، بنفورٍ مستترٍ يملؤه الغموض.

كانت تكره أن يحدّق إليها أحد (كان يكفي أن تفعل مدام دومونت ذلك لتجعلها تحترق خجلاً)، لكنها تعلمت كيف تراقب الآخرين عبر أيديهم، فالأيدي تفصح عن الحقيقة أكثر من العيون، ولا تجيد الكذب، كما أنها تظل مشغولةً فلا يلحظ أحدٌ مراقبتها. رأت يد والدها، هامدةً في حجره، مكدودةً ومخيفة، عظام معصمه نافرة كأنها توشك أن تثقب جلده، والشعر الكثيف بين أصابعه، ويد جدها التي لمحتها في ظهيرة صيف، مستلقيةً فوق بطنه، تحوم حولها الذبابات الصغيرة وهو مستسلمٌ لنومٍ عميق.

راقبت أيدي إخوتها، ورأت كيف تحولت سريعًا إلى أيدي عمالٍ قاسية، ثم أيدي النساء الريفيات، التي تنبعث منها روائح اللبن الحامض وعلف الماشية، أما يدا مدام دومونت، فكانتا صغيرتين، تزين أطراف أصابعها بقع الدم الناتجة عن وخز الإبر. كانت كل هذه الأيدي أيدي كادحين، وحين كانت ترتاح، بدت سخيفةً، كأنها تفقد معناها.

أما الفقراء، فقد كانوا يدركون هذا في أعماقهم، ولهذا كانت أيديهم قلقةً عندما لا تكون مشغولة، وكأنها تبحث عن شيءٍ تمسك به. وقول أحدهم عن العامل في بدلة العطلة "إنه لا يعرف أين يضع يديه" لم يكن سوى سخريةٍ قاسية، فذلك العامل يدين لهاتين اليدين بلقمته الوحيدة.

كان طرف ثوبها، المصنوع من نسيجٍ رقيقٍ مهترئ، قد انحشر تحت حذائها الخشبي، وحينما همّت برفعه، تمزق طوليًا، فبانت هشاشته كخيوطٍ نسيج العنكبوت.

عندها، داهمتها تلك الرغبة العميقة الخفية في الموت مجددًا، رغبةٌ كانت عنيفةً إلى حدٍّ جعلها تتلوى من الألم، كحيوانٍ عالقٍ في فخ. لكنها لم تفكر بالموت بوضوح، ولم يكن نظرتها الخاطفة إلى سطح البركة المتلألئة عند قدميها سوى نظرةٍ خاوية. لم تكن تريد أن تموت، لكنها شعرت بخجلٍ غريب، وبخوفٍ لا تفسير له، كذاك الذي يجتاح بعض الأرواح المتوترة دون إنذار، في لحظاتٍ لا يتوقعها أحد، حتى أثناء حديثٍ وديٍّ مع أصدقاءٍ قدامى.

اجتاحتها تلك الرهبة مثل نوبةٍ عصبيةٍ قاسية، وشعرت كأنها محاصرةٌ بجدارٍ من الصمت والعزلة، تدور في قلبه بجنون، مثل عقربٍ أُحرقَت حوله الدائرة.

لم يخطر ببالها أدنى ذكرٍ لذلك الرجل الذي استحوذ عليها لليلة، والذي شاركته مخاوفه الفجّة والصبيانية. في مثل هذه اللحظات، كان يمكن للغضب أو العار، بما يحملانه من توقٍ للانتقام، أن

يحلاّ محل الأمل في قلبها، غير أن خيالها كان أشد عنفًا وأقرب إلى الحسية من أن يتجاوز اللحظة الراهنة، أما المستقبل، فقد غدا كلمةً بلا معنى.

ذلك الإحساس الرهيب بعدم الجدوى، الذي طالما عذب الأرواح المتقدة والفطنة، والذي كان أحيانًا—في حالات نادرة—وسيلة خلاصها (نادرة، لأن هذا الإحساس، كالأفعى في الأسطورة، أو ربما هو الأفعى ذاتها، لا يأتي إلا مهلكًا)، لم يكن قد تجلىّ بعد في عقلها. بل انفجر في أعماقها كما ينفجر لغمٌ في قاع البحر، فلا يُسمع له دويّ، لكنه يبعثر سطح الماء.

تلك الكراهية المترصدة، التي تتدثر بالحنان، المنبعثة من أغوار الجحيم، وهي ذاتها الإغواء الأبدي، تنسج خيوطها بخبثٍ بين سادة الأرض وأثريائها، غير أنها لا تتسلل إلى أرواح الفقراء إلا بغتةً، إذ يحملون على جباههم ختم فقرهم المقدس. تراقبهم كل يوم، بمزيجٍ من الرهبة والتحفّز، وربما بالخوف المستتر. لكنها، ما إن تزرع في نفوسهم اليأس، حتى تُفتح ثغرات قلوبهم على اتساعها، ويجد البسطاء أنفسهم بلا مفر، سوى ذلك الهروب الأخير—الانتحار، ذلك الانتحار الذي يشبه انتحار الأطفال.

كانت قطعةٌ من الشاش تتدلى على حافة الضفة، هامدةً في سكون الهواء.

حدّقت موشيت في تلك البركة الصغيرة المنعزلة؛ تتغير سطوحها بين النور والظل، فتشع حينًا، وتغرق في العتمة حينًا آخر. إحساسٌ مباغتٌ بالخطر جعلها تبدأ في الهبوط على المنحدر، محاولةً ترتيب أفكارها. غير أن عقلها كان يغرق في الضباب، مضطربًا وواهنًا، كأن دماءها تتدفق في رأسها بسرعةٍ جنونية، بل إنها شعرت بذلك النبض المحموم في كل شريان من جسدها. لكنه اليوم لم يكن سوىً ذلك النعاس الذي يسبق السقوط في نومٍ ثقيل بعد نوبة حمى.

استدارت بعيدًا عن الماء، ملقيةً نظرةً نحو الريف الذي ألفته، كأنها تبحث عن ملاذٍ أو عزاء. تطلعت إلى الطريق الضيق الذي يلتف حول أطراف الغابة، ثم ينحدر إلى الوادي، ذلك الطريق الذي سلكته مرارًا في أحد أيام الآحاد الخريفية، بين الأسوار المتشابكة بأشواك العليق. دمعت عيناها، أو هكذا خُيّل لها، فقد شعرت بحرارة الدمع تتأجج تحت جفونها.

وفجأة، دوّى وقع حوافرٍ على طريق ميزارجن، وما لبث أن ظهر حصانُ مينيتريه الضخم عند قمة التل، وكان الرجل والحيوان قريبين منها إلى حد أنها سمعت الرجل العجوز يتمتم ساخطًا، يشكو من زكامه المزمن.

راودتها غريزة الهرب، لكن ساقيها بدتا كأنهما من رصاص. ومع اقتراب مينيتريه، تسارع خفقان قلبها حتى خُيّل إليها أنه سينفجر. التقت عيناها بعيني الرجل للحظة، لكنه كان ينظر إليها ببرودٍ لا يختلف عن برود حصانه.

أرادت أن تصرخ، أن تهرع إليه، أن تستنجد بذلك المنقذ الغريب، لكنه مضى في طريقه الوئيد، متواريًا شيئًا فشيئًا، كما لو أن العدم ابتلعه فجأة. حدّقت موشيت في ذلك الاختفاء الغامض، والرجل، بلحمه ودمه، لم يعد أكثر من شبحٍ عابرٍ في الفراغ.

الانتحار لا يرعب إلا أولئك الذين لم تُساورهم فكرته قط، ولن تُساورهم أبدًا، فهو لا يحتضن إلا من كُتب لهم أن يسلكوا دربه. أما الرجل الذي يحمل في صدره نية القتل، فلن يعترف بالإنتحار إلا عند لحظته الأخيرة. ومن لم يكن مجنونًا، فإن آخر إحساسٍ يختبره عند الموت هو الذهول، والمفاجأة اليائسة. فلا أحد، سوى المجانين الذين لا ينتمون لقانوننا، يحاول أن ينتحر مرتين.

حين اقتربت من الماء، كان صافياً، ورأت في أعماقه طبقةً من الطين الرمادي المخضرّ، وديعةً كملمس المخمل.

لكن الصوت الذي تسرب إلى مسامعها كان أشد وداعة، بل كان أقرب إلى همسٍ متلاشٍ، لا تدري إن كان صوتًا حقًا. أصاخت السمع إليه كما يصيخ الكلب إلى صاحبه حين يناديه ليطمئنه. كان يشبه صوت العجوز، لكنه كان أيضًا يشبه صوت آرسين، وأحيانًا حتى صوت مدام دومونت. لم يكن ينطق بلغةٍ بشرية، بل كان محض تمتمةٍ راحلة، ثم ساد الصمت.

انزلقت موشيت على الضفة حتى لامست ساقها برد الماء اللاذع، حتى فخذها، وفجأة، خيّم داخلها صمتٌ مطلق، لا نهائي، كذاك الصمت الذي يخيّم على الحشد وهو يحبس أنفاسه عند قمة السلّم، حين يصل البهلوان إلى الدرجة الأخيرة من السُلَّم.

تهاوت إرادتها، وانسابت في الماء، دافعةً نفسها بيدها عن الضفة. كان يمكنها أن تثبّت جسدها في المياه الضحلة بضغط كفّها على القاع، لكنها استدارت ببطء، وحدّقت في السماء.

راحت تحسّ بتسلل الماء حول رأسها ورقبتها، يملأ أذنيها بضحكةٍ خفية، غامرة. عرفت أن الحياة تنسلّ من بين أناملها، وأن رائحة القبر قد بدأت تتصاعد إلى أنفها.

تمت.